المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

خطاب الرحمة
في القرآن الكريم
مقاربة في الأبعاد والدلالات

إعداد:
أ.د. محمد زرمان
جامعة باتنة ـ1ـ الجزائر

١٣٣

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرحمة قيمة إنسانية عظيمة، وخلق رفيع، وخصلة حميدة من خصال الخير، ومقام كبير حازه السعداء من الخلق، وحرم منه القساة الأشقياء، ولكل مخلوق في أعماق تركيبه نصيب من الرحمة، زرعها الله في فطرته، ليتواصل بها مع بني جنسه. قال رسول الله ﷺ: «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة في الأرض، فبها يتراحم الخلق، حتى إن الفرس لترفع حافرها، والناقة لترفع خفها، مخافة أن تصيب ولدها، وأمسك تسعة وتسعين رحمة عنده ليوم القيامة» [رواه البخاري]. وتشير معاجم اللغة إلى أن الرحمة تعني الرقة والعطف، وفي الاصطلاح: فضيلة تدل على قوة صاحبها ونبله، لأنه لا يحتكر الخير لنفسه، ولا يهمل التفكير في سواه، وهي اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته ﷻ. وهي في بني آدم كمال في الخُلُق، تجعل الإنسان يرق لآلام الناس، ويسعى لإزالتها، وتقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العباد.

أهمية الموضوع:

والرحمة مصطلح قرآني بامتياز، فقد تكرر ذكره ٣٣٢ مرة بصيغ الاسم

والفعل المختلفة، وبمعانٍ متباينة، فالرحمة صفة من صفات الله عز وجل إذ هو مصدر الرحمة كلها، ورحمته واسعة لا تحدها حدود، ولا تنتهي عند غاية، ومعانيها تتغيّر بتغيّر السياق الذي وردت فيه، فقد تأتي بمعنى الجنة، أو بمعنى النبوة، أو بمعنى القرآن، أو بمعنى الغيث، أو بمعنى الرزق، أو بمعنى المغفرة والعفو، وغيرها من المعاني والأبعاد الكثيرة، التي استنبطها المفسرون، والتي تشمل كل خير ونفع، يعم الإنسان في الدنيا والآخرة.

ولهذه الرحمة الربانية الشاملة تجليات كثيرة، تضمنها الخطاب القرآني، منها إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومنها تسخير جميع الكائنات لمنفعة الإنسان، ومنها رفع البلاء وتفريج الكرب، ومنها إنزال المطر، ومنها رفع الحرج في أحكام الشريعة، ومنها قبول التوبة. ويندرج هذا البحث في إطار التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وتكمن أهميته في أن القرآن الكريم قد اهتم بموضوع الرحمة اهتمامًا لافتًا وبارزًا، وهذا البحث محاولة للكشف والإحاطة بمختلف الجوانب المتعلقة بمقام الرحمة في الخطاب القرآني.

مشكلة البحث:

من أبرز ما يلفت الانتباه في واقعنا الراهن ما شاع عن الإسلام من أنه دين العنف والإرهاب، وأن تعاليمه مبنية على الكراهية وإقصاء الآخر، ومما كرَّس هذه الشبهات ورسّخها أيضًا انتشار مظاهر التطرف والغلو، المفضي إلى العنف بين المسلمين، وهو ما يؤكد أن خلق الرحمة الذي احتل مساحة مهمة لا يمكن إغفالها في الخطاب القرآني، قد فقد معناه وعمقه في حياتهم، ولم يعد له تأثير يذكر في سلوكهم، بالإضافة إلى أن موضوع الرحمة لم يلق من العناية والاهتمام ما يستحقه في المجال الأكاديمي. ويطمح هذا البحث إلى الإجابة عن جملة من التساؤلات المحورية منها:

ما مدى اهتمام الخطاب القرآني بمصطلح الرحمة؟ وما هي الدلالات اللغوية والاصطلاحية التي يكتسيها هذا المصطلح؟ وما هي المقاصد السامية والإيحاءات والأبعاد الكبرى المرتبطة بالرحمة الإلهية؟ وما هي التمثلات والتجليات المختلفة والمتنوعة لهذه الرحمة؟

الدراسات السابقة:

على الرغم من الأهمية الكبيرة التي يكتسيها موضوع الرحمة في القرآن الكريم، إلا أن الدراسات التي اهتمت به لا تزال قليلة ومحدودة، وكثير منها تناولت الرحمة في إطار موضوع الأخلاق الإسلامية. ومن ثَمَّ كانت معظم المعالجات جزئية وسريعة. ومن الأمثلة على ذلك:

١. خلق المسلم لمحمد الغزالي. طبع الكتاب بالدار الشامية للطباعة والنشر بدمشق عام ٢٠١٠م. وقد تناول فيه صاحبه مجموعة من الأخلاق الإسلامية في القرآن والسنة، ومنها خلق الرحمة بطريقة مختصرة.

٢. موسوعة أخلاق القرآن لأحمد الشرباصي. طبع الكتاب في طبعته الأولى بدار الرائد العربي ببيروت عام ١٩٨١م. وقد تناول في هذه الموسوعة بأجزائها الستة عددًا كبيرًا من الأخلاق الإسلامية ومنها خلق الرحمة.

٣. جواهر الأخلاق والآداب الإسلامية. عادل العوضي. طبع الكتاب بدار الشركة الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع. عام ٢٠٠٤م. وفيه تحدث عن معاني الرحمة بشكل عام، وأورد عددًا من الأمثلة عن الرحمة بين الناس والرحمة بالحيوان وغيرها.

٤. الرحمة في حياة الرسول ﷺ لراغب السرجاني. طبع الكتاب

برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. وقد عالج فيه مؤلفه خلق الرحمة في حياة النبي ﷺ بصفة خاصة، وضمنه بعض الإشارات السريعة للرحمة في القرآن.

أهداف البحث:

أما الأهداف المتوخاة منه، فهي تتلخص في إبراز المقاصد السامية للرحمة في الخطاب القرآني، وتجلية الأبعاد والدلالات الكبرى، التي يحملها مصطلح الرحمة، والعكوف على معانيه الجليلة المبثوثة بكثرة ملفتة للنظر بين آياته، والتعرف إلى المكانة المتميزة التي يحتلها خلق الرحمة في منظومة القيم الإسلامية، وتأصيل خلق الرحمة في المعاملات بإحياء قيمة الرحمة والتراحم في حياة المسلمين اليوم، لتغدو دستورًا في علاقاتهم على مستوى الذات وعلى مستوى العلاقة مع الآخر، والسعي لتجاوز كل الشبهات والافتراءات التي تحوم حول الإسلام، بالتأكيد على أن رسالته رحمة للعالمين.

منهج البحث:

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي من خلال جمع كل الآيات الواردة في موضوع الرحمة بجميع صيغها ومشتقاتها، ثم تصنيفها بحسب المفردات الكبرى المتعلقة بها، ثم الاستعانة بالملاحظة والتحليل لاكتشاف الأبعاد والمعاني والدلالات المختلفة، والاستناد إلى ذلك كله للخروج بجملة من القواعد العامة، التي تؤسس لموضوع الرحمة في الخطاب القرآني في جوانبه العديدة. واستعنت في إعداد هذا البحث بمجموعة كبيرة من المصادر والمراجع قاربت الخمسين كتابًا، أغلبها من كتب التفسير وعلوم القرآن القديمة والحديثة بمختلف مناهجها واتجاهاتها، قصد الإحاطة بأطراف الموضوع من جميع جوانبه،

واكتشاف أكبر قدر ممكن من الإيحاءات والأبعاد المرتبطة بالموضوع. في أثناء إعدادنا لهذه الدراسة لم نهتدِ إلى دراسات متخصصة في هذا الموضوع، وإنما هي إشارات سريعة ومقاربات عامة على الرغم من أن موضوع الرحمة يستدعي وقفات طويلة وتحليلات عميقة تجلِّي أسراره وخباياه.

خطة البحث:

مقدمة.

المبحث الأول: الرحمة المصطلح والمفهوم، وفيه مطلبان.

المطلب الأول: مصطلح الرحمة قراءة في الإطار المفاهيمي.

المطلب الثاني: مصطلح الرحمة في الخطاب القرآني.

المبحث الثاني: خصائص الرحمة الإلهية، وفيه خمسة مطالب.

المطلب الأول: ارتباط الرحمة بالذات الإلهية.

المطلب الثاني: سعة رحمة الله وشمولها لكل شيء.

المطلب الثالث: رحمة الله مبذولة لجميع الخلق في الدنيا.

المطلب الرابع: الرحمة كلها بيد الله.

المطلب الخامس: رحمة الله عامة في الدنيا لجميع الخلق، وخاصة في الآخرة بالمؤمنين.

المبحث الثالث: مقام الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني، وأبرز معالمه.

المبحث الرابع: معاني الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني، وفيه عشرة مطالب.

المطلب الأول: الرحمة بمعنى النبوة.

المطلب الثاني: الرحمة بمعنى القرآن.

المطلب الثالث: الرحمة بمعنى الجنة.

المطلب الرابع: الرحمة بمعنى الرزق.

المطلب الخامس: الرحمة بمعنى النصر.

المطلب السادس الرحمة بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان.

المطلب السابع: الرحمة بمعنى المغفرة.

المطلب الثامن: الرحمة بمعنى إجابة الدعاء.

المطلب التاسع: الرحمة بمعنى العصمة.

المطلب العاشر: الرحمة بمعنى السعة والتخفيف.

المبحث الخامس: تجليات الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني، وفيه سبعة مطالب.

المطلب الأول: إرسال الرسل والأنبياء.

المطلب الثاني: إنزال الكتب.

المطلب الثالث: إنزال المطر.

المطلب الرابع: تسخير الكائنات للخلق.

المطلب الخامس: رفع البلاء عن الخلق.

المطلب السادس: رفع الحرج عن الناس.

المطلب السابع: قبول التوبة.

الخاتمة ونتائج البحث.

المبحث الأول
الرحمة المصطلح والمفهوم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
مصطلح الرحمة قراءة في الإطار المفاهيمي

جاء في المعاجم العربية أن الرحمة لغة مشتقة من الفعل رحم يرحم مرحمة، إذا رقَّ له وتعطَّف عليه، قال الجوهري: الرحمة الرقة والتعطف[١]. وأصل المادة يدل على الرقة والعطف والرأفة، والرحمة في بني آدم عند العرب رقة القلب وعطفه[٢]، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا، ومنها الرحم وهي علاقة القرابة، ثم سميَّت رَحِمُ الأنثى رَحِمًا من هذا، لأن منها ما يكون ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ له من ولد[٣]، ورحمة الله عطفه وإحسانه ورزقه.

أما في المصطلح فقد عَرضت طائفة من القدماء للفظ الرحمة، ووضعوا لها تعاريف مختلفة، ومنهم الجاحظ الذي وصف الرحمة بأنها شعور يجمع بين الود والجزع، وُدٌّ وحُبٌّ للمرحوم، يدفع الراحم إلى إرادة الخير له

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري. تاج اللغة وصحاح العربية. ط٢. ١٩٩٧م. دار العلم للملايين. بيروت. ج٥. ص١٩٢٩.
(٢) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. مادة رحم. دار صادر. بيروت. ج١٢. ص٢٣٠.
(٣) أبو الحسين أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الفكر العربي. بيروت. ١٩٧٨م. ج ٢. ص٤٩٨.

والسعي في إيصاله إليه، وجَزَعٌ وخوف على المرحوم من أن يقع في مكروه أو يصيبه أذى: "الرّحمة خلق مركَّب من الودِّ والجزع، والرَّحمة، لا تكون إلّا لمن تظهر منه لراحمه خلّة مكروهة، فالرّحمة هي محبّة للمرحوم مع جزع من الحال الّتي من أجلها رُحِم"(١). وعرفها ابن القيم على أنها: "صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقَّت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك ولو شقَّ عليك في ذلك"(٢)، وهي عند الراغب الأصفهاني: "رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلانا"(٣)، وذهب الكفوي إلى أن الرحمة: "حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان"(٤).

كما عرفتها طائفة من المحدثين، ومنهم محمد الطاهر بن عاشور الذي عَرَّفها بقوله إنها: "رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه، واسم الرحمة موضوع في العربية لرقة الخاطر وانعطافه نحو حيّ، بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه، ودفع الضر عنه وإعانته على المشاق"(٥)، وهي عند أحمد الشرباصي: "فضيلة تدل على قوة صاحبها ونبله، لأنه لا يحتكر الخير لنفسه، ولا يهمل التفكير في سواه، بل يحس بآلام الآخرين، ويقدر مشاعرهم، ويسهم في معاونتهم، ويخفف عنهم حينما يستحقون التخفيف"(٦)، وعند عبدالرحمن الميداني:

(١) عمرو بن بحر الجاحظ. تهذيب الأخلاق. دار الصحابة للتراث بطنطا. مصر. ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. ص٢٤.
(٢) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة. بيروت. ط ٢. ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م. ج٢. ص١٧٤.
(٣) الراغب الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: نديم مرعشلي. دار الكتاب العربي. بيروت. ١٩٧٢م. ص١٩٦.
(٤) أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. الكليات. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٢. ١٩٩٣م. ص٤٧١.
(٥) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس. ١٩٨٤م. ج٢٦. ص٢١.
(٦) أحمد الشرباصي. موسوعة أخلاق القرآن. دار الرائد العربي. بيروت. ج١. ص١٢٢.

"رقة في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر، أو يلامسها السرور حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود المسرة عند شخص آخر"(١).

وقد فرَّق العلماء في تعريفهم لمصطلح الرحمة بين نوعين منها: الرحمة الإلهية والرحمة الإنسانية، ونبَّهوا إلى ذلك حتى لا تختلط المفاهيم، لما بين النوعين من فرق كبير، وأشاروا إلى أن الرحمة الإلهية صفة من صفات الله عز وجل ثابتة الوجود له، وتتناسب مع جلاله وكماله، فهو المصدر الوحيد لإفاضة النعم بلا حد، والإحسان إلى جميع مخلوقاته بسعة وتجدد، لا منتهى لهما، فإذا أضيفت إليه فإنها تدلّ على الفيض الذي لا يتناهي والكرم الذي لا ينقطع، إذ إنها رحمة وهبية ليست مربوطة بشرط، يتفضّل الله بها دون اكتساب، بكل ما تحمله من الاتساع والفتوح والكرم، أما الرحمة الإنسانية فهي انفعال خاص يعرض للقلب عند مشاهدة النقص فيندفع الإنسان لرفع ذلك.

وقد أفاض العلماء والمفسرون في توضيح هذه الفروق، فقال أبو حامد الغزالي: "والرحمة تستدعي مرحومًا، ولا مرحوم إلا هو محتاج. ورحمة الله تامة عامة، أما تمامها فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها، وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق، وعمَّ الدنيا والآخرة، وتناول الضرورات والحاجات، هو الرحيم المطلق حقًا"(٢)، وقال الراغب الأصفهاني: "وإذا وُصِفَ بها الباري فليس يرادُ بها إلا الإحسان المجرَّد دون الرقة، وعلى هذا رُوِيَ أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطُّف... فذلك إشارة إلى ما تقدم وهو أن

(١) عبدالرحمن حبنكة الميداني. الأخلاق الإسلامية وأسسها. دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ط٨. ٢٠١٠م. ج٢. ص٣.

(٢) أبو حامد الغزالي. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. القاهرة. ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م. ص١٤و١٥.

الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركَّز ﷻ في طبائع الناس الرقة، وتفرَّد بالإحسان"[1].

كما ذكر الآلوسي في التفرقة بين الرحمتين: أن الرحمة في العباد ناشئة من الانفعالات وتقلبات المزاج، لكنها إذا نسبت إلى الله عز وجل كانت صفة تتناسب مع كماله وجلاله: "فلأنَّ كون الرحمة في اللغة رقة القلب إنما هو فينا، وهذا لا يستلزم ارتكاب التجوز عند إثباتها لله ﷻ، لأنها حينئذ صفة لائقة بكمال ذاته كسائر صفاته"[2]، وذهب الشيخ محمد عبده في تفسيره لفاتحة الكتاب المذهب نفسه، فقال: "الرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة، وهي معنى يلم بالقلب، فيبعث صاحبه ويحمله على الإحسان إلى غيره، وهو محال على الله ﷻ بالمعنى المعروف عند البشر، لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه الإحسان، والله ﷻ مُنَزَّهٌ عن الآلام والانفعالات"[3]، فالرحمة إذا أضيفت إلى الله ﷻ لا يراد بها إلا المنتهى الذي هو الفعل دون المبدأ الذي هو الانفعال: "فالرحمة التي جعلها الله في قلوب عباده من صفات الفعل، وهي رقة على المرحوم، والله عز وجل منزَّهٌ عن الوصف بذلك"[4].

وقد ذهب العلماء إلى أن رحمة الله على صنفين: رحمة عامة شاملة في الدنيا لجميع المخلوقات من الإنس والجن والطير والوحش وسائر ما خلق الله في هذا الكون الشاسع، ورحمة خاصة تقتضي سعادة الدنيا والآخرة بيّن الله مستحقيها في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، قال

(١) الراغب الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. ص١٩٦.
(٢) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار الفكر. بيروت. ١٩٧٨م. ج١. ص٢٧.
(٣) محمد رشيد رضا. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٠م. ج٤. ص٢٥.
(٤) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. فتح الباري شرح صحيح البخاري. دار المعرفة. بيروت. ج١٣. ص٤١٤.

السعدي في تفسير هذه الآية: "﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي صغارها وكبارها..."[1].

ولمصطلح الرحمة في اللغة العربية نظائر وأشباه عديدة، وإن كنا نؤكد أن لكل كلمة في القرآن الكريم معناها الخاص وظلالها المتميزة التي لا تشاركها فيها لفظة أخرى، فإن القرآن: "يستخدم كل كلمة بدقة، بحيث تؤدي معناها بإحكام شديد، حتى يكاد السامع يؤمن أن هذه الكلمة إنما خلقت لهذا المكان بعينه، وأي كلمة أخرى لا تؤدي المعنى الذي أفادته أختها من الألفاظ"[2] غير أن هناك ما يوحي بالقرابة في الدلالة بينها. وأقرب هذه النظائر: الرأفة والحنان والشفقة والعطف والرقة والرفق واللين.

وتنفرد كلمتا الرأفة والحنان بوضع خاص، لورودهما في القرآن الكريم للدلالة على شكل من أشكال الرحمة، حيث وردت كلمة الرأفة في موضعين، الموضع الأول قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، والموضع الثاني في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:٢٧]، قال بعض المفسرين: إن الرأفة في الآيتين معناها الرحمة واللين[3]، وذهب ابن منظور إلى أن الرأفة هي أشد الرحمة أو أرقها[4].

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ١. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م. ص٣٠٥.
(٢) عمار ساسي. المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم. عالم الكتب الحديث. الأردن. ط ١. ٢٠٠٦م. ص٢٠١.
(٣) محمد علي الصابوني. صفوة التفاسير. دار الصابوني. القاهرة. ط١. ١٩٩٧م. ج٢. ص٢٩٨.
(٤) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. مادة رأف. ج٩. ص١١٢.

أما في باقي المواضع التي وردت فيها بصيغة فعيل (رؤوف)، وهي أحد عشر موضعًا[١]، فقد اقترنت في ثمانية مواضع منها بكلمة رحيم (رؤوف رحيم)، وقد فصَّل فيها المفسرون، واستنبطوا منها جملة من المعاني. ففي حين ذهب ابن عاشور إلى أن: "الرؤوف الرحيم صفتان مشبهتان، مشتقة أولاهما من الرأفة، والثانية من الرحمة، والرأفة مفسَّرة بالرحمة في إطلاق كلام الجمهور من أهل اللغة"[٢]، رأى الطبري في تفسيره: أن الرأفة هي أعلى معاني الرحمة[٣]، وقال الأزهري: "الرأفة أخص من الرحمة وأرق"[٤]، أما الخطابي فيرى فيهما فرقًا من نوع آخر، وضَّحه في قوله: "قد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة، ولا تكاد تكون الرأفة في الكراهة، فهذا موضع الفرق بينهما"[٥]، ووافقه في ذلك القرطبي الذي ذكر أن: "الرأفة نعمة مُلذَّة من جميع الوجوه، والرحمة قد تكون مؤلمة في الحال، ويكون في عقباها لذة... لأن صفة الرأفة إذا انسدلت على مخلوق لم يلحقه مكروه"[٦]، واستشهدوا لذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، فالرحمة في جلدهما حاصلة فعلًا، لأن الجلد يطهّر الزاني من ذنبه، وينتهي به إلى جنات النعيم، على الرغم من أن ظاهره عذاب، إلا أن باطنه رحمة، ونهى ﷻ عن الرأفة بهما، لأن الرأفة خير في أولها وآخرها، ولو حصلت الرأفة لما أمكنَ تنفيذ حدِّ الجلد.

(١) البقرة (١٤٣،٢٠٧)، آل عمران (٣٠)، التوبة (١١٧،١٢٨)، النحل (٧،٤٧)، الحج (٦٥)، النور (٢٠)، الحديد (٩)، الحشر (١٠).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج ١٨. ص١٢٣.

(٣) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان في تفسير القرآن. دار المعرفة. بيروت. ط ٣. ١٩٧٨م. ج٣. ص١٧١.

(٤) محمد بن أحمد الأزهري. تهذيب اللغة. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط ١. ٢٠٠١م. ج١٥. ص٢٣٨.

(٥) حمد بن محمد البستي الخطابي. شأن الدعاء. تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. دار الثقافة العربية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٣. ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م. ص٩١.

(٦) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته. تحقيق: عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي. المكتبة العصرية. بيروت. ط ١. ٢٠١٢م. ص١١٥.

وذهب الآلوسي مذهبهما، فقد ذكر هو أيضًا أن المشهور عند العلماء أن الرأفة تأتي بمعنى الرحمة: "لكن إذا اقترنتا في سياق الكلام فلكل واحدة مكان من الكلام، حيث يراد بالرأفة درء المفاسد، ويراد بالرحمة جلب الخير والمصالح"(١)، ودعموا هذا الرأي بأننا نقول لمن أصابه بلاء في الدنيا في ضمنه خير له في الآخرة: إن الله قد رحمه بهذا البلاء، ونقول لمن أصابته عافية في الدنيا في ضمنها خير في الآخرة، واتصلت له العافية أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا: إن الله قد رأف به، وهذا ما قصده ابن القيم حين قال: "ومن رحمته ﷻ ابتلاء الخلق بالأوامر والنواهي رحمة لهم وحميّة، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، ومن رحمته أن نغَّصَ عليهم الدنيا وكدَّرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا عن النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إليها بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيَهم، وابتلاهم ليعافيهم"(٢)، فالرحمة تسبق الرأفة، والرأفة هي المنزلة التي تعقُبُها، فإذا رقَّ القلب دعاه ذلك إلى الرحمة، وإذا رحِمَ واشتدَّت رحمته وامتلأ القلب بها كانت الرأفة.

أما كلمة حنان فقد وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ [مريم]، وقد ذهب كثير من المفسرين واللغويين أمثال الفراء والأزهري إلى أنها تعني الرحمة والعطف والمحبة(٣)، ومنهم الراغب الأصفهاني الذي قال: "ولما كان الحنين متضمنًا للإشفاق، والإشفاق لا ينفكُّ من الرحمة، عُبِّرَ عن الرحمة به في نحو قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾"(٤).

(١) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. مج ٩. ج٢٧، ص١٩٠.
(٢) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. ج٢. ص١٧٥.
(٣) راجع: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن. مج ٨. ج١٦. ص٤٣. و: إسماعيل ابن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج٤. ص٤٤٢. و: برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة. ١٩٨٤م. ج٤. ص٥٢٤.
(٤) الراغب الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. ص١٣٢.

ومن أضداد الرحمة في اللغة: القسوة، العنف، التعسير، الجفاء، الطغيان، العتوّ، الظلم، القهر والاستبداد وغيرها من المفردات التي توحي بقسوة القلب وجفاف الروح وموت الضمير ودناءة الأخلاق وخراب الذمة، وما ينتج عن ذلك كله من اعتداء على حقوق العباد، وأكل أموال الضعفاء، واستحلال الدماء والأعراض، ونشر الفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل.

المطلب الثاني

مصطلح الرحمة في الخطاب القرآني

الرحمة مصطلح قرآني أصيل، لا يكاد يغيب عن مجمل السور القرآنية، وهو يلفت نظرنا بحضوره القويّ والمكثف في ثنايا الآيات الكريمة، وقد تعددت تعاريفه وتنوعت بحسب ما تلقيه هذه الكلمة من الظلال الكثيفة، وما تكتنزه من المعاني الثرية. وأكثر ما يثير الانتباه أن صفة الرحمة قد انفردت في القرآن الكريم بالصدارة وبفارق كبير عن أي صفة أخرى، فقد تكررت بمشتقاتها ٣٣٢ مرة كما هو واضح من الجدول الآتي:

#	الصيغة	النوع	العدد	السور
١	رحم(٤ مرات) رحمه رحمنا رحمته رحمناهم	صيغة الماضي	٨ مرات	رحم: هود (٤٣)(١١٩)، يوسف (٥٣)، الدخان (٤٢)، رحمه: الأنعام (١٦)، رحمنا: الملك (٢٨)، رحمته: غافر (٩)، رحمناهم: المؤمنون (٧٥)

#	الصيغة	النوع	العدد	السور
٢	ترحمون(٨ مرات) يرحمكم(٢ مرتان) ترحمنا يرحمنا ترحمني يرحم	صيغة المضارع	١٤ مرة	ترحمون: آل عمران (١٣٢)، الأنعام (١٥٥)، الأعراف (٦٣)(٢٠٤)، النور (٥٦)، النمل (٤٦)، يس (٤٥)، الحجرات (١٠)، يرحمكم: الإسراء (٨)(٥٤)، ترحمنا: الأعراف (٢٣)، يرحمنا: الأعراف (١٤٩)، ترحمني: هود (٤٧).
٣	ارحمنا (٣ مرات) ارحم ارحمهما	صيغة الأمر	٥ مرات	ارحمنا :البقرة (٢٨٦)، الأعراف (١٥٥)، المؤمنون (١٠٩)، ارحم: المؤمنون (١١٨)، ارحمهما: الإسراء (٢٤).
٤	سيرحمهم	صيغة المستقبل	١ مرة واحدة	التوبة (٧١).
٥	رحمة (٧٩ مرة)- رحمته (٢٥ مرة) رحمتك (٣ مرات) رحمتنا (٥ مرات) رحمتي (٢ مرتين)	صيغة الاسم	١١٤ مرة	رحمة: وردت (٧٩) مرة في (٣١) سورة، رحمته: وردت (٢٥) مرة في (١٨)سورة، رحمتك: الأعراف (١٥١)، يونس (٨٦)، النمل(١٩)، رحمتنا: يوسف (٥٦)، مريم (٥٠)(٥٣)، الأنبياء (٧٥)(٨٦)، رحمتي: الأعراف (١٥٦)، العنكبوت (٢٣).
٦	المرحمة رحمًا	صيغة المصدر	٢ مرتان	المرحمة: البلد (١٧)، رحمًا: الكهف (٨١).

#	الصيغة	النوع	العدد	السور
٧	أرحم (٤ مرات)	صيغة اسم التفضيل	٤ مرات	أرحم: الأعراف(١٥١)، الأنبياء(٨٣)، يوسف(٦٤)(٩٢).
٨	الأرحام (٩ مرات) أرحامكم (٢ مرتان) أرحامهن (١ مرة واحدة)	صيغة اسم الذات	١٢ مرة	الأرحام: آل عمران(٦)، النساء(١)، الأنعام (١٤٣، ١٤٤)، الأنفال (٧٥)، الرعد (٨)، الحج (٥)، لقمان (٣٤)، الأحزاب (٦)، أرحامكم: محمد (٢٢)، الممتحنة (٣)، أرحامهن: (البقرة، ٢٢٨).
٩	رحماء	صيغة المبالغة	١ مرة واحدة	الفتح، ٢٩
١٠	الرحمن		٥٧	وردت في ١٨ سورة منها: الفاتحة، البقرة، الرعد، الإسراء، مريم، يس، الزخرف، الملك وغيرها.
١١	الرحيم		١١٤	وردت في ٤٢ سورة منها: الفاتحة، البقرة، النساء، التوبة، النحل، النور، الشعراء، الأحزاب وغيرها.

ويبرز من بين هذه الصيغ جميعًا اسم الرحمن الرحيم، الذي تكرر في أوائل كل سور القرآن ما عدا سورة التوبة، والذي عده العلماء من أجلّ أسماء الله ﷻ وأعظمها وأشهرها بعد اسم الجلالة (الله)، وكلاهما مشتق من الرحمة، عرّف الله بهما نفسه إلى الخلق، فقال عز وجل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢]، قال ابن القيم: "أظهر الأسماء التي افتتح الله بها كتابه في أم القرآن، وهي من أظهر

شعائر التوحيد، والكلمة الجارية على ألسنة أهل الإسلام، وهي بسم الله الرحمن الرحيم، التي هي مفتاح الطّهور، والصلاة وجميع الأفعال..."[1].

وقد اقترن هذان الاسمان بعضهما ببعض في ستة مواضع في القرآن الكريم، ذهب بعض العلماء إلى أن الاسمين بمعنى واحد، وإنما جمع الله ﷻ بينهما للتوكيد[2]، حيث ورد عن القرطبي قوله: "قال قطرب: يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد. قال أبو إسحاق: وهذا قولٌ حسن، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب، ويستغنى عن الاستشهاد، والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد: إنّه تفَضُّلٌ بعد تفضّل، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين، ووعْدٌ لا يخيبُ آمِلُهُ"[3]، وقد عقب الإمام محمد عبده على ذلك قائلًا: "وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه: إن في القرآن كلمة تغاير أخرى، ثم تأتي لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها في نفسها معنى تستقل به. نعم، قد يكون في معنى الكلمة ما يزيد معنى الأخرى تقريرًا أو إيضاحًا، ولكن الذي لا أجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير بحيث تكون من قبيل ما يسمى بالمترادف في عرف أهل اللغة. فإن ذلك لا يقع إلا في كلام من يرمي في لفظه إلى مجرد التنميق والتزويق"[4].

بينما اتفق كثير من العلماء والمفسرين على وجود فروق في معانيهما، وفصَّلوا في هذه الفروق، وأبرزها: أن صفة الرحمن انفردت عن صفة الرحيم باقترانها باسم الله الذي لا يجوز أن يُسَمَّى به غيره، قال تعالى:

(١) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. اختصره: ابن الموصلي. تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث. القاهرة. ط ١. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م. ج٢. ص١١٢.

(٢) أحمد بن محمد النحاس. معاني القرآن. تحقيق: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. ط ١. ١٤٠٩هـ. ج١. ص٥٤.

(٣) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته. تحقيق: عرفان ابن سليم العشا حسونة الدمشقي. المكتبة العصرية. بيروت. ط ١. ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. ص٤٠٠.

(٤) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١. ص٣٣.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠] ، وعقَّب الجوهري على هذه الآية بقوله:"فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره"(١)، وقال ابن دريد: "فكما أن الله اسم ليس لأحد فيه شركة كذلك الرحمن"(٢)، وقال سيد قطب: "ووصفه ﷻ في البدء بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها، وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن. فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم؛ ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن، ومن باب أولى أن تجتمع له الصفتان"(٣).

ومن هذه الفروق أيضًا أن صفة الرحمن جاءت في صيغة مبالغة: "الرحمن صيغة مبالغة من الرحمة، معناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة، وهي أبلغ من فعيل، وفعيل أبلغ من فاعل، لأن راحمًا يقال لمن رحم ولو مرة، ورحيما يقال لمن كَثُرَ منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة"(٤)، وقال ابن الجوزي: "وخلاصة الأمر أن الرحمن مشتق من الرحمة، مبنيٌّ على المبالغة، ومعناه ذو الرحمة التي لا نظير له فيها"(٥)، ورأى بعضهم أن صفة الرحمن ترمز إلى الرحمة الإلهية العامة، التي تشمل الموالي والمعادي، والمؤمن والكافر، والمحسن والمسيء، وهي صيغة مبالغة لذلك لا يسمَّى به غير الله ﷻ، والرحيم ترمز إلى الرحمة الخاصة الإلهية، التي خص بها الله ﷻ عباده المؤمنين، وجعلها من نصيب المتقين المحسنين: "ولعل في ذكر الرحيم بعد الرحمن ما يفيد تخصيص المؤمنين بزيادة الرحمة

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري. تاج اللغة وصحاح العربية. مادة رحم. ج٥. ص١٩٢٩.
(٢) محمد بن الحسن بن دريد. جمهرة اللغة. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. ط١. ١٩٨٧م. ج١. ص٥٢٤.
(٣) سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط ٧. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م. ج١. ص٢١ - ٢٢.
(٤) عبدالرحمن بن محمد الثعالبي. الجواهر الحسان في تفسير القرآن. مؤسسة الأعلى. بيروت. ج١. ص٢١.
(٥) عبدالرحمن بن علي بن الجوزي. زاد المسير في علم التفسير. المكتب الإسلامي. بيروت. ط ٣. ١٤٠٤هـ. ج١. ص٩.

بعد عموم رحمته في الدنيا والآخرة، فإن الله ﷻ رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، يرحم المؤمنين بالمغفرة وإدخالهم الجنة"[1]، وفي تفسير المنار: "والجمهور على أن معنى (الرحمن) المنعم بجلائل النعم، ومعنى (الرحيم) المنعم بدقائقها، وبعضهم يقول: إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم في اللغة، مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى"[2].

أما صيغة الرحيم فقد وردت مفردة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[3]، كما اقترنت في آيات أخرى بجملة من الصفات الخاصة بالله عز وجل منها: الغفور، العزيز، التواب، الرؤوف، الودود، البر. فاسم الغفور اقترن بالرحيم اثنتين وخمسين مرة (٥٢)، وهي من أكثر المعاني التي اقترنت ببعضها في القرآن الكريم، وقد علق محمد الطاهر بن عاشور على ذلك بقوله: "إن الرحيم يؤكد معنى الغفور، ليطمئن أهل العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف إلى الإقلاع عما هم فيه"[4]. ولم تأت صفة الرحمة سابقة على المغفرة إلا في موضع واحد في قوله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ:٢]، وعلل فاضل السامرائي ذلك بتعليل لطيف، فقال: "وسبب تقديم الغفور على الرحيم: أن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في سورة سبأ، لأن الرحمة شملتهم جميعًا والمغفرة تخص بعضًا، والعموم قبل الخصوص بالرتبة. ولإيضاح ذلك: أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعمُّ، والمغفرة لا تأتي إلا للمكلَّفين

(١) عبدالرحمن بن محمد الثعالبي. الجواهر الحسان في تفسير القرآن. ج١. ص٢١.
(٢) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١. ص٤٠.
(٣) النساء، ٢٩. الإسراء، ٦٦. الأحزاب، ٤٣.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٦. ص١٥٧.

والمذنبين الذين يغفر الله ﷻ لهم، وإنما جاء ذكرهم بعد الآيتين الأولى والثانية لذا اقتضى تأخير الغفور لتأخر المغفور لهم في سياق الآية. أما في باقي سور القرآن الكريم فقد وردت الغفور الرحيم؛ لأنه تقدّم ذكر المكلَّفين فيذنبون فيغفر الله ﷻ لهم، فتطلّب تقديم المغفرة على الرحمة"[1].

واقترن اسم العزيز بالرحيم أربع عشر مرة (١٤)، وقد ذكر العلماء من لطائف هذا الاقتران: أن الرحمة الإلهية نابعة من العزة والقوة والقدرة، فهو ﷻ قادر على قهر من يعصيه بعزته، ونصر من يطيعه برحمته[2]، واقترن اسم التواب بالرحيم عشر مرات، قال الشعراوي: "والتواب صيغة مبالغة، فكلما تكررت التوبة من العبد بتكرار ذنبه، كلما تكرر القبول من الله لعباده برحمته"[3].واقترن اسم الرؤوف بالرحيم تسع مرات (٩)، واسم البر مرة واحدة، واسم الودود مرة واحدة. قال ابن القيم: "وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب ﷻ يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك"[4].

ومما سبق يتضح لنا أن الرحمة مصطلح قرآني واسع الحضور، شديد الصلة بكثير من الصفات الإلهية التي اقترنت به وأنبأت عن سعته وشموله لكل دقائق الوجود وشؤون الحياة.

(١) فاضل السامرائي. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. دار عمار. عمان. الأردن. ط ٣. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. ص٣١٥.
(٢) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. دار الكتاب العربي. بيروت. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م. ج٢. ص١١٣.
(٣) محمد متولي الشعراوي. أسماء الله الحسنى. المكتبة التوقيفية للتراث. القاهرة. ٢٠١٠م. ص٢٧٨.
(٤) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. التبيان في أقسام القرآن. دار المعرفة للطباعة والنشر. القاهرة. ٢٠٠٤م. ج١. ص٩٣.

المبحث الثاني
خصائص الرحمة الإلهية

وفيه خمسة مطالب:

إن المتأمل في الآيات الكثيرة التي ورد فيها مصطلح الرحمة يدرك أن هذه الصفة الربانية متغلغلة في كل ذرة من ذرات الوجود، تتراءى لنا مظاهرها في كل حركاته وسكناته، وتتجلى في جميع مظاهر هذا الكون البديع الذي يرعاه الرحمن الرحيم بعنايته، ويُسَيِّر شؤونه برأفته ورفقه ولطفه. وهذا ما نستخلصه من تأملنا في خصائص هذه الرحمة، التي تؤكد شمولها وسعتها واستيعابها لجميع الخلائق، كما سنوضِّح فيما يلي:

المطلب الأول
ارتباط الرحمة بالذات الإلهية

نستشف من الخطاب القرآني أن من أخص خصائص الرحمة الإلهية ارتباطها بالخالق عز وجل، فالرحمة صفة ثابتة من صفاته ﷻ، وصف بها نفسه العلية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وأكد أنه مصدر الرحمة كلها ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، جاء في تفسير الطبري: "يقول جل ثناؤه (وربك) الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه،

وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية (الغني)، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه، لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم. يقول عز ذكره: فلم أخلقهم، يا محمد، ولم آمرهم بما أمرتهم به، وأنههم عما نهيتهم عنه، لحاجة لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأتفضل عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، فإني ذو الرأفة والرحمة"(١).

وقال ﷻ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، قال الطبري: "قضى ﷻ أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا من الله ﷻ ذكره استعطاف للمعرِضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة"(٢)، وقال ابن كثير: " أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا"(٣).

فهذه الرحمة ذات المصدر الإلهي تفيض بالخير وتسِحُّ بالعطاء، لأنها نابعة من إله غنيٍّ بيده خزائن السموات والأرض، ينفق منها كيف يشاء، ويغمر بها مخلوقاته، وهو يعاملهم بما عنده من الرحمة الواسعة، وليس بما يستحقونه من المعاملة، إذ في كثير من أعمالهم وأقوالهم الظلم والبغي والفساد والعدوان والإسراف، وغيرها من المنكرات والموبقات، ولو أنه ﷻ وضع ميزان عدله ورفع موجبات رحمته لهلك الناس: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨]، قال السعدي: "ثم أخبر ﷻ عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب لعجَّل لهم العذاب. ولكنه ﷻ حليم لا

(١) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٢. ص١٢٦.
(٢) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج٥. ص١٥٤.
(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج٣. ص٢٦٣.

يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل. وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة. فإن تابوا وأنابوا غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب"[1]. لذلك قال الفيروز آبادي: "الرحمة سبب واصل بين الله وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم"[2].

وهذه الرحمة الربانية لا تُقَاسُ بمعايير العباد القاصرة، وإنما هي خاضعة لحكمة الله وعلمه الواسع، الذي لا يحيط به البشر. فقد تبدو الأوامر والنواهي والزواجر وسيرورة الأحداث للناس كأنها عقاب أو تشديد من الله، بينما هي تحمل في باطنها الرحمة والرأفة واللطف الإلهي. يقول ابن القيم: "من رحمته ﷻ ابتلاء الخلق بالأوامر والنواهي رحمةً لهم، وحميةً لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، ومن رحمته أنْ نَغَّص عليهم الدنيا وكدَّرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا عن النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إليها بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم، ومن رحمته بهم أن حذَّرهم نفسه لئلا يغتروا به، ومن رحمته أن أنزل لهم كتبًا، وأرسل لهم الرسل"[3].

المطلب الثاني
سعة رحمة الله وشمولها لكل شيء

وينبئنا الخطاب القرآني أن من خصائص رحمة الله أيضًا شمولها وسعتها سعةً لا حدود لها، يدبر بها ﷻ شؤون العالمين، ويسبغها بلطفه

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٤٨١.
(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق: محمد النجار. المكتبة العلمية. بيروت. ج٣. ص٥٤.
(٣) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. ج٢. ص٢٤٤.

على جميع خلقه البرَّ والفاجر، والطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد شملته هذه الرحمة، ووصلت إليه منَّة الله، وغمره فضله، وعمَّه إحسانه، من حلمه على عباده ورزقه إياهم، وتوفيقه لهم في أمور معاشهم ودنياهم، فالجميع يتقلبون في رحمته آناء الليل وأطراف النهار، وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه: "ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العد، ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه، وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه، وهو كثير"(١). قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي شأنها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص ولا حيوان ولا جماد، إلا وهو متقلب في الدنيا برحمته. قال الآلوسي: "ورحمتي وسعت كل شيء: إنسانًا كان أو غيره، مطيعا كان أو غيره، فما من شيء إلا وهو داخل فيها سابح في تيارها أو سايح في فيافيها، بل ما من معذب إلا ويرشح عليه ما يرشح منها"(٢).

المطلب الثالث
رحمة الله مبذولة لجميع الخلق في الدنيا

فأبوابه مفتوحة لكل من أراد أن يستظل بظل رحمته، وينعم بجواره، وينال موجبات مغفرته، ويعود إلى حظيرة عفوه، ويحظى بستره وإحسانه، وقد بيَّن لنا ﷻ في كتابه الكريم أنه عفوٌّ كريم، يغفر الذنوب، ويتجاوز عن السيئات ويقيل العثرات، ويمحو الزلات، ويتوب على التائبين ويفرح بعودة

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٩٢١.
(٢) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. ج٩. ص٧٨.

المخطئين، ويبالغ في إكرامهم حتى إنه ليبدِّل ما أسلفوا من السيئات حسنات لهم، مكافأة لهم على تركهم للمعاصي والمنكرات، واتباعهم لصراط الله المستقيم. لذلك فإن رحمة الله في متناول كل من أراد أن يعيش في كنفها، فيطلبها بأسبابها، ويتحرَّى الوسائل الموصلة إليها "وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام.[1]"

وينبئنا الخطاب القرآني أن رحمة الله لا تعزُّ على طالب في أيِّ مكان ولا في أيّ حال: "وجدها إبراهيم عليه السلام في النار. ووجدها يوسف عليه السلام في الجب كما وجدها في السجن. ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى عليه السلام في اليم، وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف:١٦] ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، والقوم يتعقَّبونهما ويقُصُّون الآثار، ووجدها كلُّ من آوى إليها يأسًا من كل ما سواها، منقطعًا عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنَّة في رحمة، قاصدًا باب الله وحده دون الأبواب"[2].

المطلب الرابع
الرحمة كلها بيد الله

فهو سبحانه وتعالى مصدرها الأول والأخير، من فضله تنبع، ومن إحسانه تفيض،

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٩٢٣.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٩٢٣.

ورحمة العباد بعضهم ببعض فيض من رحمته، وليس بمقدور أحد أن يمسك هذه الرحمة إذا أرسلها رب الأرباب، ولا بمقدوره أن يرسل منها مثقال ذرة إذا أمسكها العزيز الوهاب. قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر:٢]: "ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها، ومن ثَمَّ فلا مخافة من أحد، ولا رجاء في أحد، ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء، ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة، إنما هي مشيئة الله، ما يفتح الله فلا ممسك له، وما يمسك الله فلا مرسل له، والأمر مباشرة إلى الله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، يُقَدِّر بلا مُعَقِّب على الإرسال والإمساك. ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك".[1] وهذه الحقيقة الجميلة تبعث في نفوس المؤمنين الاطمئنان، وتنشر فيها الراحة والاستسلام لرب العالمين، وتشعرها بالأمان، فلا تكسرها المصائب، ولا تغلبها النوائب، ولا يتسلل اليأس إليها، وهي موقنة أن رحمة الله ترعاها بعنايتها.

المطلب الخامس
رحمة الله عامة في الدنيا لجميع الخلق وخاصة في الآخرة بالمؤمنين

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى:

أجمع كثير من العلماء والمفسرين على أن من خصائص رحمة الله أنها عامة لجميع الخلق في الدنيا، يتفيّؤ ظلالها البشر جميعًا على اختلاف أجناسهم

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٩٢٣.

ومللهم ونحلهم واعتقاداتهم، لا يمنعهم الله من الانتفاع بشمسه ولا قمره ولا رزقه، ولا يبخل عليهم بالأمن والصحة والعافية والأقوات الوفيرة والنعم الكثيرة: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]، لأن الدنيا دار ابتلاء، تتساوى فيها فرص الجميع في العطاء، ليتنافس الناس أيُّهم أحسن عملا. يقول عبدالحميد بن باديس: "وأما في الدنيا فإنهم قد أُعْطُوا من نِعَم الحياة، ومُكِّنُوا من أسبابها. فقد تساووا في الخلقة البشرية، وفي العقل المميِّز المفكِّر، وفي الإرادة الحرة. وقد أظلَّتهم السماء، وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء. وقد أقلَّتهم الأرض وشملتهم نعمة الهواء والماء والغذاء والدواء والنبات والحيوان والجماد، وكلَّ ما يخرج من الأرض، وجاءتهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية إليه، فاختار كلٌّ بعقله - وهو حرٌّ في إرادته حرية لا يمكن لأحد أن يكابر فيها ما اختار لنفسه"(١).

المسألة الثانية:

أما في الآخرة التي هي دار حساب وجزاء، فإن الرحمة التي تقتضي دخول الجنة ستكون من نصيب المؤمنين فقط، أولئك الذين آمنوا واتقوا، وأحسنوا القول والعمل، وجاهدوا أنفسهم، لتستقيم على طريق الله، وخالفوا أهواءهم، وقتلوا نوازع الشر والاستكبار فيها، وزرعوا الخير بين الناس، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وكانوا حراسًا أوفياء لقيم العدل والخير. ويُحْرَم منها العصاة، لأنهم تنكبوا الصراط المستقيم، وانجرفوا مع تيارات الكفر والجحود والنفاق والهوى، وعاثوا في الأرض فسادا. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

(١) عبدالحميد بن باديس. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. جمع وترتيب وإعداد وتعليق: توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان. ط٣. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق. ص٧٩.

المسألة الثالثة:

وهناك فئات محرومة من رحمة الله يوم القيامة حرمانًا مطلقًا، خصها الخطاب القرآني بالذكر، لما لأصحابها من أثر بالغ في الفساد والإفساد، وهم الكافرون والطغاة والظالمون والمجرمون. وإذا كانت أسماؤهم تختلف باختلاف أنواع معاصيهم، فإنهم يشتركون جميعًا في كونهم رؤوس الشر ومصدر الفساد في الأرض. ومما تجدر الإشارة إليه أن الكافرين إنما استحقوا الحرمان من رحمة الله لكفرهم به وجحودهم لوجوده أو شركهم وعدم إفراده بالعبودية، ونال الطغاة والمجرمون والظالمون الجزاء نفسه، لأنهم جمعوا إلى الكفر بالله أو الشرك به صفات الطغيان والظلم والإجرام، كما يتضح ذلك من سياق الآيات، وفيما يأتي توضيح لذلك:

أ. الفئة الأولى الكافرون:

الذين يكفرون بالله، ويتخبطون في الشك والريب، ويجحدون وحدانيته، ويرفضون الحق الذي جاء به الأنبياء، وينكرون البعث والحساب، ويرفضون الاستماع إلى الوحي، ويعطلون عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، فلا يقلِّبونها في آيات الله الظاهرة، ويحاربون الله ورسوله، ويوالون الطواغيت للقضاء على المؤمنين، ويصدون عن سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت]، قال الرازي: "﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة، لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يُرْحَم، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلًّا للرحمة، فإذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين، فييأسوا من رحمة الله"[1].

(١) فخر الدين محمد بن عمر الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م. ج٢٠. ص٤٥.

وفي تفسيرها أيضًا قال السعدي: "يخبر ﷻ من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاؤوهم به، وكذبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال: أولئك يئسوا من رحمتي، أي: فلذلك لم يعلموا سببًا واحدًا يحصلون به الرحمة، وإلا فلو طمعوا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالًا، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير"(١)، ويعقب سيد قطب على هذه الآية قائلًا: "ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه، وينقطع ما بينه وبين ربه، وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله، وجفت نداوته، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل، والعاقبة معروفة: وأولئك لهم عذاب أليم"(٢).

ب. الفئة الثانية الطغاة:

وهم الذين جمعوا إلى الكفر أو الشرك صفة الطغيان، فقست قلوبهم وأنكروا الحق وحاربوه، وأسرفوا في الظلم وسفك الدماء، وجاوزوا الحد في البغي في الأرض، فأهلكوا الحرث والنسل، فهؤلاء محرومون من هذه الرحمة، لأنهم ليسوا أهلًا لها، وقد جزم الله ﷻ أنه لو رحمهم وكشف عنهم الضر لبالغوا في الفساد، ولملؤوا الدنيا طغيانًا وظلمًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون:٧٥] "وهذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس، القاسية قلوبهم، الغافلين عن الله، المكذبين بالآخرة"(٣).

ج. الفئة الثالثة المجرمون:

الذين يعادون الأنبياء، ويؤذون أتباعهم، ويسخرون من أهل الحق

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ج٦. ص١٣١٠.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٧٣٢.
(٣) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٤. ص٢٤٧٧.

والصلاح ويمكرون بهم ويصدون عن سبيل الله، ويغرقون في مظاهر الترف. وقد دل سياق الآيات الكريمة أنه ليس المراد بالمجرمين كل من ارتكب معصية، بل المراد به الكافرون والمشركون. قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام]، قال الطبري: "(فقل ربكم ذو رحمة) بنا وبمن كان به مؤمنًا من عباده، وبغيرهم من خلقه، (واسعة) تسع جميع خلقه، المحسن والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمة منه بكلا الفريقين، ولكن بأسه وسطوته وعذابه لا يرده إذا أحله عند غضبه على المجرمين، و(المجرمون) هم الذين أجرموا فاكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات.[1]"

د. الفئة الرابعة الظالمون:

وهم الذين يجحدون آيات الله، ويعرضون عنها، ويتخذونها هزؤًا، ويتعدون حدوده ويتبعون الهوى، ويضلون الناس بغير علم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى]، قال السعدي: "وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، فما لهم من دون الله من وليٍّ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب، ولا نصير يدفع عنهم المكروه"[2]. وقال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان]، فكل من تلبَّس بظلم فهو مطرود من رحمة الله، وأعظم الظلم الكفر والشرك، وإنكار الجزاء والتكذيب بالآخرة، والآية لا تشمل المؤمنين الذين قد يقترفون ظلمًا لكنهم يظلون في دائرة التوحيد.

(١) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان في تفسير القرآن. ج١٢. ص٢٠٧.
(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص١٥٨٢.

قال السعدي: "يدخل من يشاء في رحمته، فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة، ويهديه لطرقها. والظالمين الذين اختاروا الشقاء على الهدى أعد لهم عذابًا أليمًا بظلمهم وعدوانهم"[1].

ومما سبق يتضح لنا أن رحمة الله في الدنيا عامة للجميع، أما في الآخرة فإنها خاصة بالمؤمنين، كما يقتضيه عدل الله ﷻ، والذي يضع الموازين القسط لتُجْزَى كل نفس بما عملت.

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٩٠٣.

المبحث الثالث
مقام الرحمة الإلهية
في الخطاب القرآني، وأبرز معالمه

لا نبالغ إذا قلنا: إن صفة الرحمة قد حازت في الخطاب القرآني قصب السبق، وانفردت بالصدارة وبفارق كبير عن أي صفة أخرى، حيث تكررت بمشتقاتها -كما أسلفنا- ٣٣٢ مرة، بل إن بعض الباحثين يذهب إلى أن عددها يبلغ ٣٤٠ مرة: "فهي تتوزع تقريبًا صفحات المصحف كلها، لتصل إلى ٣٤٠ موقعًا، تكاد تكون بعدد أيام السنة حتى لتوشك أن تبلغ نسبة رحمة قرآنية كل يوم! ويزيد الأمر رسوخًا أن هذا الرقم يتوزع على ٣٢ تصريفًا واشتقاقًا، مما يدل على سعة تداول القرآن الكريم للفظة الرحمة وعِظَم تصرفها في ثناياه أفعالًا وأسماء وصفات، بالمفرد والجمع، بالإسناد والإطلاق"[١]. وفي المقابل فقد جاءت كثير من الصفات التي زكاها القرآن في منزلة تالية لمنزلة الرحمة، حيث وردت صفة الصدق مثلًا (١٤٥مرة)، والصبر (٩٠ مرة) والعفو (٤٣ مرة) والكرم (٤٢ مرة) والأمانة(٤٠ مرة) كما هو مبيَّن في الرسم البياني التالي[٢]:

(١) أبو زيد المقرئ الإدريسي. عموم الرحمة وعالمية الإسلام. مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات. الدار البيضاء. المغرب. ط١. مارس ٢٠١٤م. ص١٥.

(٢) راغب السرجاني، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، رابطة العالم الإسلامي. مكة المكرمة. ص٤٥.

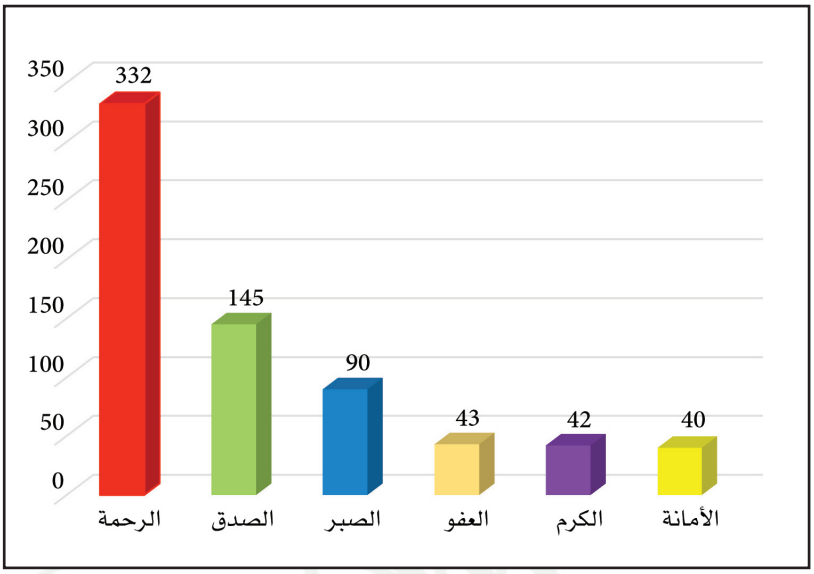

ويتضح لنا مقام الرحمة في الخطاب القرآني جليًا في كثير من المعالم التي تقابلنا في أثناء تصفحنا لكتاب الله، ومن أبرز هذه المعالم:

أ. تكرار البسملة في كل السور:

فجميع سور القرآن الكريم -ما عدا سورة التوبة- تبتدئ بالبسملة التي تتضمن صفتي الرحمن والرحيم بالذات دون سائر الصفات الإلهية المبثوثة في ثنايا الآيات، وهذا دليل على تميُّزها وعلوِّ مقامها، إذ هي مقصودة بمعانيها وأبعادها، لتدل على أن الذي أنزل هذا القرآن وصدَّر سوره بهاتين الصفتين إنما يرعى مخلوقاته بهما ويدبر شؤونهم بمقتضاهما: "وليس يخفى على أحد أن تصدير كل السور بهاتين الصفتين (الرحمن الرحيم) أمر له دلالته الواضحة على أهمية الرحمة في التشريع الإسلامي... وكان من الممكن أن يجمع الله عز وجل مع صفة الرحمة صفة أخرى من صفاته كالعظيم أو الحكيم أو السميع أو البصير، وكان من الممكن أن يجمع مع الرحمة صفة أخرى تحمل معنى آخر، يحقق توازنًا عند القارئ، بحيث لا تطغى عنده صفة الرحمة،

وذلك مثل الجبار أو المنتقم أو القهار، ولكن الجمع بين هاتين الصفتين المتقاربتين في كل بداية لسور القرآن الكريم يعطي الانطباع الواضح جدًّا، وهو أن الرحمة مُقدَّمَة بلا منازع على كل الصفات الأخرى، وأن التعامل بالرحمة هو الأصل الذي لا ينهار أبدًا، ولا يتداعى أمام غيره من الأصول"[1].

ب. العدد الكبير من الآيات الواردة في الرحمة:

فقد أسلفنا أن لفظ الرحمة قد ورد في القرآن الكريم بصيغه المختلفة ومشتقاته ٣٣٢ مرة، واستوعب من المعاني الجليلة والإشارات اللطيفة الشيء الكثير، حتى إن الناظر في القرآن الكريم ليعجب من شيوع الرحمة بلفظها ومعانيها ومرادفاتها في ثنايا آياته؛ فهي تتوزع نسيج القرآن الكريم وتزيِّنه بمعانيها الغنية، وتؤكد حقيقة كونه فعلًا ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢]، إضافة إلى تكرار وصف الله لكتابه بأنه (الرحمة)، وما يلابسها من شفاء ونور وهداية.

ج. طلب الرحمة في دعوات الملائكة والأنبياء والمؤمنين:

حيث نجد أن للرحمة في دعوات الملائكة والأنبياء والمؤمنين مكانة متميزة في الخطاب القرآني، فهي مقصدهم جميعًا، وملجؤهم في الملمّات، ومطلبهم الأسمى في الدنيا والآخرة.

ففي دعوات الملائكة المقربين الذين يحملون العرش توسل إلى الله أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله، وأن يشملهم برحمته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن

(١) راغب السرجاني. الرحمة في حياة الرسول ﷺ. ص٣٣.

تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر:٧-٩]، قال السعدي: "وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه. فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة وإزالة ما اقتضته النفوس البشرية، التي علم الله نقصها توسلوا بالرحيم العليم"(١).

وفي دعوات الأنبياء نجد أن الدعاء بالرحمة قاسم مشترك بينهم: "فالرحمة من آثارها التوفيق، والدوام على الهدى في الدنيا، والنعيم الأبدي في الآخرة؛ ولهذا كثرت الأدعية في كتاب اللَّه لهذا المطلب الجليل، وهذا من حسن دعائهم، وأدبهم مع ربهم"(٢). فمن دعاء آدم وحواء عليهما السلام بعد أن أزلهما الشيطان وذاقا من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف] ومن دعاء نوح عليه السلام عن توبته من سؤاله النجاة لولده الكافر: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]، ومن دعاء موسى وهارون عليهما السلام لاتقاء بطش فرعون وظلمه: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٦]، ومن دعاء موسى عليه السلام يستعطف ربه أن يشمله برحمته هو وأخاه بعد أن فتن قومه بعبادة العجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف]، ومن دعاء سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ومن دعاء أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء].

وفي دعوات المؤمنين الذين يرجون الرحمة الإلهية بعد طلب العفو

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٧٣٣.
(٢) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. ج٣. ص١٤٧.

والمغفرة: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فالمؤمن مهما حاول الوفاء بواجبات دينه -يجد نفسه مقصرًا، فيطلب من الله أن يعامله برحمته، لينجو من تبعات ذنوبه وغفلته. قال السعدي: "فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور"(١)، والذين يرجون هذه الرحمة بعد طلب الثبات على الحق والنجاة من الفتن وسلامة القلب من الزيغ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران]، قال الآلوسي: "سألوا ربّهم رحمة بالتنوين والتنكير دلالة على التفخيم والتعظيم، أي: رحمة عظيمة واسعة شاملة، تقتضي حصول نور الإيمان والتوحيد والمعرفة في القلب"(٢)، ومن هؤلاء المؤمنين الصالحين أصحاب الكهف، الذين استمطروا رحمة الله، ليثبتِّهم ويحفظهم بها من فتنة الكفار وملاحقتهم لهم، وييسّر لهم بها أسباب الخير والرشد: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف:١٠].

ومما لا شك فيه أن لهذه المساحة الكبيرة التي احتلها خطاب الرحمة في القرآن الكريم شأنًا مهمًّا ينبئ عن أثرها الكبير في حياة الإنسان والمجتمع، ويحيل إلى أن الرحمة نظام عملي شامل للحياة يتجلى في كل دقائقها ويميّز كل خصائصها.

(١) المرجع نفسه، ص١٢١.
(٢) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. ج٣. ص١٤٧.

المبحث الرابع
معاني الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني

وفيه عشرة مطالب:

إن هذا الحضور المتميز والمكثف للرحمة في الخطاب القرآني، قد لفت أنظار المفسرين والعلماء والباحثين، ودفعهم إلى التدقيق في معانيه وإيحاءاته، ومحاولة استجلاء أبعاده من خلال استقراء الآيات القرآنية وسبر أغوارها، فوجدوا أن هذا المصطلح يختزن في ثناياه ألوانًا من المعاني وأشكالًا من الإيحاءات المختلفة، التي تمتد لتشمل كثيرًا من النعم التي تفضل الله بها على عباده ثم أضفى عليها صفة الرحمة، لينبه إلى أن مطلق عطاء الله عز وجل بشتى أشكاله، وألوانه، وأنواعه، وصفاته، مقدمه ومؤخره يُعَدُّ من الرحمة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

ومن جملة المعاني التي يتضمنها مصطلح الرحمة في القرآن نذكر:

المطلب الأول
الرحمة بمعنى النبوة

كما وردت كلمة الرحمة، لتدل على النبوة. فقد عبّر الله ﷻ عن النبوة التي خصَّ بها الصفوة من خلقه بأنها رحمة من عنده، ينقذ بها العباد من

الضلال، ويعيدهم بها إلى سواء الصراط كلما غلبتهم أهواؤهم فنسوا عهد الله، أو أغواهم الشيطان فضلوا السبيل. قال ﷻ مستنكرًا على المشركين جحودهم لنبوة الرسول ﷺ، وتفضيلهم لرجل من القريتين عظيم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢]. قال الآلوسي: "ويجوز أن يكون المراد بالرحمة في الآية النبوة، وهو الأنسب، وعليه أكثر المفسرين"(١)، وقال ابن عاشور: "ورحمة الله هي اصطفاؤه عبده للرسالة عنه إلى الناس"(٢).

ومن الآيات التي وردت فيها كلمة الرحمة بمعنى النبوة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥]، قال الطبري: "والله يختص برحمته من يشاء، والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته، فيرسله إلى من يشاء من خلقه، واختصاصه إياهم بها: إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه، وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه وهدايته من هدى من عباده رحمة منه له، ليُصَيِّرَهُ بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناءه، وكل ذلك رحمة من الله له"(٣).

ومنها أيضًا قوله ﷻ على لسان صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود:٢٨]، قال الطبري: "وآتاني رحمة من عنده: رزقني التوفيق والنبوة والحكمة"(٤)، وقال القرطبي: "وآتاني رحمة من عنده أي: نبوة ورسالة، عن ابن عباس: وهي رحمة على الخلق"(٥)، وقال محمد رشيد رضا: "وآتاني رحمة من عنده: وهي النبوة وتعاليم الوحي

(١) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. مج ٩. ج٢٥. ص٧٨.
(٢) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٢٥. ص٢٤٦.
(٣) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١. ص٣٧٨.
(٤) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٥. ص٢٩٨.
(٥) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. ط٢. ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م. ج٩. ص٢٥.

التي هي سبب رحمة الله الخاصة لمن يهتدي بها فوق رحمته العامة لعباده كلهم"[1]، وقال محمد الأمين الشنقيطي: "على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إليَّ من التوحيد والهدى"[2].

المطلب الثاني
الرحمة بمعنى القرآن

وردت كلمة الرحمة بمعنى القرآن الكريم، حيث وصف الله عز وجل كتابه الكريم بأنه رحمة في مواضع عديدة، منَّ فيها على عباده بهذا الفضل العظيم، وهذه الرحمة الواسعة التي أكرمهم بإنزالها عليهم، ليكون لهم وللبشرية إلى قيام الساعة نورًا وهدى. قال ﷻ داعيًا المؤمنين إلى أن يستشعروا فضله الكبير عليهم بما خصّهم به من آيات الذكر الحكيم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]. ذهب كثير من أهل التفسير والتأويل إلى أن المقصود بفضل الله الإسلام ورحمته القرآن، قال الطبري: "الذي تفضل به عليكم وهو الإسلام، فبيّنه لكم ودعاكم إليه، وبرحمته التي رحمكم بها، فأنزلها إليكم فعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصركم بها معالم دينكم، وذلك القرآن"[3].

وقال عز وجل مؤكدًا على صفتي الهداية والرحمة اللتين يتصف بهما القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل:٧٦-٧٧]، وقال ﷻ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان:٢-٣]: "هدى لهم

(١) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١٢. ص٥٥.
(٢) محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر. دمشق. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م. ج٢. ص١٧٨.
(٣) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١١. ص٨٧.

يهديهم بها إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم، و(رحمة) تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والثواب الجزيل"[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف]: "أي: ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، وهو القرآن. فصلنا آياته تفصيلًا على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منار هداية عامة وسبب رحمة خاصة لقوم يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به إذا لم يهتدوا به، ولم يرضوا لأنفسهم أن تكون أهلًا لرحمته[2]".

المطلب الثالث
الرحمة بمعنى الجنة

وجاءت كلمة الرحمة في بعض الآيات لتدلَّ على الجنة ونعيمها باعتبارها الرحمة المحضة، التي يخص بها الله ﷻ عباده المؤمنين في الآخرة، جزاء لهم على مسارعتهم في الخيرات، وما أسلفوا في دنياهم من الصالحات، وما كابدوا من الصبر والجهاد. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء:١٧٥]، وهو ما أكده جماعة من المفسرين مثل ابن كثير الذي قال في تفسير الآية: "أي: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابًا ومضاعفة ورفعًا في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم"[3]، وقال البغوي: "في

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٦٤٦.
(٢) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٨. ص٣٩٣.
(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج٣. ص١٧٤.

رحمة منه، يعني الجنة"[1]، وقال الفخر الرازي: "قال ابن عباس الرحمة: الجنة، والفضل: ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت. والرحمة والفضل محمولان على ما في الجنة من المنفعة والتعظيم"[2]. وقال صاحب المنار: "فالذين يعتصمون بهذا القرآن يدخلهم الله ﷻ في رحمة خاصة منه، لا يدخل فيها سواهم، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم، ويدل على هذا التخصيص تنكير الفضل والرحمة، ورحمة الله وفضله غير محصورين، ولكنه يختص من يشاء بما شاء من أنواعهما، وقد فسرت الرحمة هنا بالجنة، والفضل بما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء"[3].

وجاء في سورة البقرة قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة]، قال الطبري في تفسيرها: "أي: يطمعون أن يرحمهم الله فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم"[4]. وفي سورة آل عمران: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران]، قال البغوي: "ففي رحمة الله جنة الله"[5]، وقال السعدي: "وأما الذين ابيضت وجوههم فيهنئون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته ﷻ، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين"[6].

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرون. دار طيبة. الرياض. ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م. ص٣١٦.
(٢) فخر الدين محمد بن عمر الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية. بيروت. ٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ. ج١١، ص٢٧٤.
(٣) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٦. ص٨٥.
(٤) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج٢. ص٣٥٥.
(٥) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٢. ص٨٩.
(٦) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص١٤٣.

المطلب الرابع
الرحمة بمعنى الرزق

ودلَّت كلمة الرحمة أيضًا في بعض آيات القرآن على الأرزاق، التي يتفضل الله بها على مخلوقاته. قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء]، قال القرطبي: "أي: خزائن الأرزاق، وقيل: خزائن النعم وهذا أعم"(١)، وقال البغوي: "أي: نعمة ربي"(٢)، وقال الشنقيطي: "إن بني آدم لو كانوا يملكون خزائن رحمته -أي: خزائن الأرزاق والنعم- لبخلوا بالرزق على غيرهم، ولأمسكوا عن الإعطاء"(٣).

المطلب الخامس
الرحمة بمعنى النصر

وصف الله النصر الذي يمنُّ به على عباده المؤمنين في مدافعتهم لقوى الكفر والظلم والطغيان بأنه رحمة منه. قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةً﴾ [الأحزاب:١٧]، قال البغوي: "أي: من يمنعكم من عذابه (إن أراد بكم سوءًا) هزيمة، أو (أراد بكم رحمة) نصرة"(٤).

(١) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. دار الفكر. بيروت. ج١٠. ص٣٠١.
(٢) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٥. ص١٣٣.
(٣) محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. ج٣. ص١٨٧.
(٤) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٦. ص٣٣٤.

المطلب السادس
الرحمة بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان

وجاء لفظ الرحمة في بعض الآيات بمعنى المحبة والمودة والألفة التي تربط بين المؤمنين، فتشدّ أواصر القرب بينهم. قال الله ﷻ عن أتباع عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧]، قال القرطبي: "أي مودة فكان يُوَادُّ بعضهم بعضًا"(١)، وقال السعدي: "وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه على دينه لينًا وشفقة، فكانوا متوادين فيما بينهم"(٢). وقال عز وجل عن الرسول ﷺ وأتباعه من المؤمنين: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] قال الطبري: "رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم"(٣)، وفي تفسير الجلالين: "متعاطفون متوادُّون: كالوالد مع الولد"(٤).

المطلب السابع
الرحمة بمعنى المغفرة

ووردت الرحمة في بعض الآيات الكريمة بمعنى المغفرة، التي يتفضل بها الله ﷻ على عباده عندما تزل أقدامهم، فيقترفون الذنوب، ويجترحون المعاصي، وتميل بهم أهواؤهم، وتغلب عليهم غرائزهم، ثم يعودون إليه نادمين، تائبين فيرحم ضعفهم بمغفرته الواسعة. قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] أي أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلًا منه وإحسانًا

(١) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. ج١٧. ص٢٣٧.
(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٨٤٣.
(٣) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج٢٢. ص٢٦٢.
(٤) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تفسير الجلالين. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ص٦٨١.

وامتنانًا. وقال عز من قائل ينادي عباده نداء رقيقًا يمتلئ أملًا وودًّا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، وقد وصف كثير من السلف هذه الآية بأنها أرجى آية في كتاب الله، لما فيها من الوعد الصادق من الله الكريم بالتجاوز عن الخطايا والسيئات بالعفو والمغفرة. قال الشوكاني في تفسير الآية: "لاتقنطوا: لا تيأسوا، من رحمة الله: من مغفرته"(١)، وقال سيد قطب: "إنها الرحمة الواسعة، التي تَسع كلَّ معصية كائنة ما كانت، وإنها الدعوة للأَوْبة، دعوة العُصاة المُسرفين الشاردين المُبعدين في تيه الضلال، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إنَّ الله رحيم بعباده، وهو يعلم ضَعفهم وعجزَهم... يعلم الله ﷻ عن هذا المخلوق كلَّ هذا، فيَمُدُّ له في العون، ويُوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصية، حتى يُهيِّئ له جميع الوسائل، ليُصلِح خطأَه، ويُقيم خُطاه على الصِّراط، وبعد أن يَلِجَّ في المعصية، ويُسرف في الذنب، ويَحسب أنه قد طُرِد وانتهى أمرُه، ولَم يَعُد يقبل ولا يستقبل"(٢).

المطلب الثامن
الرحمة بمعنى إجابة الدعاء

كما في قوله ﷻ عن زكريا عليه السلام حينما طلب الولد وقدم بين يدي ربه مظاهر ضعفه: ككبر سنه، ووهن عظمه، وعقم امرأته، ولكن رحمة الله أدركته، فاستجيب دعاؤه، وبشّرته الملائكة بالنبيّ الصالح يحيى عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾ [مريم:٢]، قال الشوكاني: "رحمته يعني:

(١) محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. دار المعرفة. بيروت. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٤م. ج١. ص١٢٨٨.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٣٠٥٨.

إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد"[1]، وفي تفسير القاسمي: "أي: ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته. فأعطاه ولدًا كاملًا في باب النبوة. فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى. وتولى تسميته، ولم يشرك فيها من تقدمه"[2].

المطلب التاسع
الرحمة بمعنى العصمة

ومن المعاني الكثيرة التي تختزنها كلمة الرحمة، نجد أن القرآن الكريم يعبّر بها عن العصمة، التي يمنّ الله بها على من يشاء من عباده فيصرف بها همتَّه عن إتيان الذنوب أو الوقوع في الخطأ رفقًا به وإحسانًا إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف] ، قال ابن كثير: إن المقصود بالرحمة في الآية العصمة، وفي تفسير الجلالين: "وما أبرئ نفسي من الزلل، إن النفس كثيرة الأمر بالسوء إلا من رحمه ربي فعصمه"[3]، وقال الطاهر بن عاشور: "أي: رحمته بأن يقيّض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يقيّض له حائلًا بينه وبين السوء... لذلك ذيّله بجملة: إن ربي غفور رحيم ثناءً على الله بأنه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب"[4].

ومثلها في ذلك قوله عز وجل على لسان نوح عليه السلام وهو ينادي ابنه ليركب

(١) محمد بن علي الشوكاني. تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. ج١. ص٨٨٢.
(٢) محمد جمال الدين القاسمي. محاسن التأويل. دار إحياء الكتب العربية. بيروت. ط ١. ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م. ج١١. ص٤١٢٥.
(٣) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تفسير الجلالين. ص٣١٧.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١٤. ص٥.

معه فيأبى ويأوي إلى الجبل، فيؤكد له والده: أن لا أحد سيعصمه من أمر الله، إلا إذا أدركته رحمته: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣]، قال البغوي: "معناه لا معصوم إلا من رحمه الله"(١)، وفي تفسير الجلالين: "من رحم الله فهو المعصوم"(٢).

المطلب العاشر
الرحمة بمعنى السعة والتخفيف

ومن معاني الرحمة في الخطاب القرآني أيضًا التخفيف في التكليف، والتيسير في الأحكام الشرعية، والتوسعة على العباد، رحمة بهم ومراعاة لضعفهم، كما في آية القصاص، التي يقول فيها ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨]، فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالرحمة في هذه الآية السعة والتخفيف عن الأمة الإسلامية، قال ابن كثير في بيان معنى الرحمة في الآية: "إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتومًا على الأمم قبلكم من القتل أو العفو"(٣)، وأوضح الطبري أنه: "كان على بني إسرائيل قصاص في القتل، ليس فيهم دية في نفس ولا جرح... وخففه الله ﷻ عن أمة محمد ﷺ، فقبل منهم الدية في النفس والجراحة، وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾"(٤).

هذا غيض من فيض المعاني التي وردت بمعنى الرحمة في الخطاب

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٤. ص١٧٩.
(٢) تفسير الجلالين. ص٢٩٧.
(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج١. ص٢١٦.
(٤) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج٢. ص٧٧.

القرآني، ومنه يتبيّن لنا أن هذه الكلمة قد اختزنت في طياتها كمًّا وافرًا من المعاني، وألوانًا شتى من المفاهيم التي تحيلنا إلى ما يتمتع به هذا المصطلح من سعة، وما يحمله من أبعاد، تحتاج إلى مزيد من التوقف والتدبر، لأن النص القرآني نص مفتوح لا يفتأ يمدّنا بالجديد في كل آن.

ومما تجدر الإشارة إليه أن معاني الرحمة في القرآن لا تقتصر على هذه اللفظة وحدها، بل هناك - إلى جانبها - حشد كبير من التعابير، التي تحمل معنى الرحمة، وتحيل إليها تأكيدًا على ما أسلفنا من أن الرحمة تسري في ثنايا الخطاب القرآني سريان الروح في الجسد. فالهداية رحمة والوحي رحمة واللين رحمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، والتسخير رحمة: "وغيرها من المعاني السامية والنعم الربانية التي توصف في القرآن بأنها رحمة أو أن سببها رحمة، أو أن الغاية منها إنزال الرحمة وتعميمها على العباد"(١).

(١) أبو زيد المقرئ الإدريسي. عموم الرحمة وعالمية الإسلام. ص١٨.

المبحث الخامس
تجليات الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني

وفيه سبعة مطالب:

هذه المعاني والدلالات الثرية التي يكتنزها مصطلح الرحمة، والتي تُلْقي بظلالها على جميع مظاهر الحياة تنبهنا إلى أن هذه النعمة الإلهية تكاد تكون هي سر الوجود وجوهر الكون والروح، التي تسري فيه، فتبعث في جوانبه الأمن والسكينة. وقد تضمّن هذا المصطلح إلى جانب هذا الحشد من المعاني المختلفة صورًا لتجليات رحمة الله ومظاهرها في كونه الفسيح، وآثارها في حياة الناس، فالآيات القرآنية تؤكد أن الرحمة الإلهية ظاهرة جليّة في جميع تفاصيل حياتنا، متغلغلة في كل ما يمتّ إلى احتياجاتنا الكبيرة والصغيرة بصلة، ويمكن أن نلمس آثارها المباركة إذا تأملنا واقعنا ببصيرة وتدبر. ويرشدنا الخطاب القرآني إلى أن من أهم تجلياتها:

المطلب الأول
إرسال الرسل والأنبياء

وصف الله ﷻ إرسال الرسل والأنبياء بأنه رحمة من عنده، لما في ذلك من مراعاة لمصالح عباده، ورأفة بهم من أن يتمادوا في سبل الضلال، التي تفسد عليهم دنياهم بالجور والظلم واقتراف الفواحش، وتضيّع

عليهم آخرتهم، فيكون مصيرهم إلى النار، فأرسل أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين، ليخرجوا الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد، ويطهّروا أخلاقهم من الرجس والفجور، ويصلحوا أمور دنياهم بالشريعة العادلة، التي تضمن الحقوق، وتقيم العدل. قال تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان:٥-٦]، قال ابن عباس: "رحمة من ربك رأفة مني بخلقي، ونعمتي عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل"(١)، وجاء في تفسير التحرير والتنوير: "ورحمة من ربك مفعول له من ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: كنا مرسلين لأجل رحمتنا، أي: بالعباد المرسل إليهم، لأن الإرسال بالإنذار رحمة بالناس، ليتجنبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب... وجملة إنه هو السميع العليم تعليل لجملة إنا كنا مرسلين رحمة من ربك، أي: كنا مرسلين رحمة بالناس، لأنه عَلِمَ عبادة المشركين للأصنام، وعَلِمَ إغواء أئمة الكفر للأمم، وعَلِمَ ضجيج الناس من ظلم قويِّهم ضعيفهم، وعَلِمَ ما سوى ذلك من أقوالهم، فأرسل الرسل لتقويمهم وإصلاحهم، وعَلِمَ أيضًا نوايا الناس وأفعالهم وإفسادهم في الأرض، فأرسل الرسل بالشرائع، لكفّ الناس عن الفساد وإصلاح عقائدهم وأعمالهم"(٢)، وقال سيد قطب في تفسير هذه الآية: "وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره، ومشيئته في إرسال الرسل للفصل والتبيين، وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين".(٣)

كما وصف الله عز وجل إرسال عيسى عليه السلام لبني إسرائيل رحمة بهم وبالناس، بعد أن ضلوا وحرّفوا التوراة، وضيّعوا حدودها، واستحلوا المحارم، وطغوا وبغوا، وملؤوا الأرض فسادًا، ونقضوا الميثاق، وفسدت عقائدهم. قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١]، قال

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٧. ص٢٢٧.
(٢) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٢٦. ص٢٨٢.
(٣) سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط ٧. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م. ج٥. ص٣٢٠٩.

البغوي في تفسيرها: "علامة للناس ودلالة على قدرتنا، ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ ونعمة لمن تبعه على دينه"(١)، وقال الطنطاوي: "ولنجعل هذا الغلام الذي وهبناه لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به، واتبع دعوته(٢)، وجاء في ظلال القرآن: "والروح يخبرها بأن ربها يخبّرها بأن هذا هيّن عليه. وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته. ورحمة لبني إسرائيل أولًا وللبشرية جميعًا، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه"(٣).

ووصف الله عز وجل بعثة الرسول ﷺ بأنها رحمة محضة، تكرَّم بها على العالمين لما في رسالته من الهداية والنور، ولما تضمنته من الأحكام والشرائع التي تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتستوعب حاجات البشرية المادية والروحية والاجتماعية إلى أن تقوم الساعة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وفي تفسير هذه الآية يقول محمد الطاهر ابن عاشور: "فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين... وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاذه الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ ومدح مرسله ﷻ، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله ﷻ للناس كافة وبأنها رحمة الله ﷻ بخلقه... وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلُّق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته"(٤). ويقول محمد الأمين الشنقيطي: "ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل هذا النبي الكريم ﷺ إلى الخلائق

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٥. ص٢٢٥.
(٢) محمد سيد طنطاوي. التفسير الوسيط للقرآن الكريم. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. الفجالة. القاهرة. ص٣٠٦.
(٣) سيد قطب. ج٦. ص٣٢٥٩.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١٨. ص١٦٥.

إلا رحمة لهم، لأنه جاءهم بما يسعدهم، وينالون به كل خير من خيري الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيَّع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى"[1].

المطلب الثاني
إنزال الكتب

ومثلما تجلت رحمة الله في إرسال الرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وإعادتهم إلى نهج الحق بعد أن ضلوا وتاهوا، تجلّت هذه الرحمة أيضًا في إنزال الكتب، التي تتضمن قواعد تطهير النفس، وتهذيب الضمير، وتزكية الأخلاق، وتحوي الشرائع الربانية، التي تنظم العلاقات، وتضع الأحكام، وتحمي حقوق العباد، وتمنع عنهم البغي والعدوان: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩﴾ [الحديد].

وقد ذكر الله ﷻ من بين الكتب التي أنزلها صحف إبراهيم وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم السلام، لكنه خص التوراة والقرآن الكريم بالذكر والتنويه، وربطهما برحمته في كثير من الآيات، باعتبارهما يمثلان مفصلين مهمين في تاريخ الأنبياء وحياة البشرية، وكرر الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله، وبخاصة كتاب موسى، باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له، لأن أصل التشريع والعقيدة في التوراة[2]. قال تعالى عن التوراة ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾ [الأنعام]، قال الطبري: "تقويمًا لهم على الطريق

(١) محمد الأمين بن المختار الشنقيطي. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. ج٤. ص٢٥١.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٦. ص٣٢٥٩.

المستقيم، وبيانًا لهم سُبُل الرشاد، لئلا يضلوا ورحمة منا بهم ورأفة، لننجيهم من الضلالة وَعمى الحيرة"[١]، وقال صاحب المنار: "أي: علمًا من أعلام الهداية وسببًا من أسباب الرحمة لمن اهتدى به"[٢]. وقال عز وجل في سورة الأحقاف: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢]، قال البغوي في تفسير الآية: "ومن قبله أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى يعني التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يُقتَدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله لمن آمن به"[٣]. وقال الرازي: "وآتينا الذي قبله التوراة، ومعنى إمامًا أي: قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه"[٤]. وجاء في ظلال القرآن تعقيبًا على هذه الآية: "من ثَمَّ سمَّى كتاب موسى ﴿إِمَامًا﴾ ووصفه بأنه رحمة، وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن في الأرض، بكل معاني الرحمة في الدنيا والآخرة"[٥].

أما القرآن الكريم فقد قرنه الله بالرحمة في مواضع كثيرة، مَنَّ فيها على عباده بهذه النعمة العظيمة، وبيَّن ما حملته من آثار رحمته الواسعة للعباد في معاشهم ومعادهم، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف]. قال الطبري: "بيَّناه ليُهْدَى ويُرْحَم به قومٌ يصدقون به، وبما فيه من أمر الله ونهيه، وأخباره، ووعده ووعيده، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى"[٦]، وقال محمد رشيد رضا: "ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، وهو القرآن. فصَّلنا آياته تفصيلًا على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من

(١) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٢. ص٢٣٣.
(٢) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٨. ص١٨٠.
(٣) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٧. ص٢٥٦.
(٤) فخر الدين محمد بن عمر الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م. ج٢٧. ص١٢.
(٥) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٦. ص٣٢٥٩.
(٦) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٢. ص٤٧٧.

العلم والعمل لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منار هداية عامة، وسبب رحمة خاصة لقوم يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به إذا لم يهتدوا به، ولم يرضوا لأنفسهم أن تكون أهلًا لرحمته"[1].

وقال السعدي في تفسيره: "أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغيّ والرشد، ويحصل أيضًا لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفى عنهم بذلك الضلال والشقاء"[2].

وقال عز وجل في سورة العنكبوت مذكّرًا بنعمة إنزال القرآن، وكأنها لوحدها من أجلّ النعم، التي تستحق الحمد والشكر، لما تحمله في طياتها من الرحمة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت]، قال السعدي: "﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يُحصِّلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية"[3]، وجاء في ظلال القرآن: "فالذين يؤمنون هم الذين يجدون مس هذه الرحمة في نفوسهم، وهم الذين يتذكرون فضل الله وعظيم منته على البشرية بهذا التنزيل؛ ويستشعرون كرمه وهو يدعوهم إلى حضرته وإلى مائدته وهو العلي الكبير، وهم الذين ينفعهم هذا القرآن، لأنه يحيا في قلوبهم، ويفتح لهم عن كنوزه ويمنحهم ذخائره، ويشرق في أرواحهم بالمعرفة والنور"[4].

(١) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٨. ص٣٩٤.
(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٢٩١.
(٣) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٦٣٤.
(٤) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٧٤٧.

المطلب الثالث
إنزال المطر

مما لا شك فيه أن إنزال الغيث من أكبر تجليات الرحمة الإلهية، ومن أجلِّ نعم الله على عباده، ففي مائه حياة أبدانهم وطهارة أجسامهم، ونمو زروعهم، وقوام أنعامهم، لذلك عدَّه القرآن الكريم من أعظم آيات الله في الكون، وامتنَّ على العباد بإنزاله، مما يدل على عظيم نفعه لهم، وكبير احتياجهم إليه، ووصفه في كتابه الكريم بأنه رحمة منه: "فإن الغيث سبب رزق عظيم، وهو ما ينزله الله بقَدر هو أعلم به، وفيه تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس، التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم. وخصها بالذكر دون غيرها من النعم الدنيوية، لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها، لأنها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب"(١).

وقد قرن إنزاله رحمته بالغيث في عدد من الآيات الكريمة، ليدل على أنه صورة من صور هذه الرحمة الربانية الواسعة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم] قال ابن كثير: "يذكر ﷻ نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقيبها، ولهذا قال ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد"(٢)، وقال الفخر الرازي: "﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ عطف على ما ذكرنا، أي: ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان "﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بالمطر"(٣).

وقال ﷻ مؤكدًا أن نزول المطر أحد تجليات رحمته، فالغيث الذي

(١) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٢٦. ص٩٥.
(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج٦. ص٣٢٢.
(٣) فخر الدين الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. ص١١٥.

يبعث الفرح والسعادة في نفوس الناس، ويطرد منها اليأس والقنوط يأتي دائمًا مصحوبًا برحمته، التي تنشر ظلالها عليهم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى]، جاء في تفسير السعدي: "وهو الذي ينزل الغيث أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، من بعد ما قنطوا، وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالاً، فينزل الله الغيث وينشر به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون بذلك ويفرحون[1]".

المطلب الرابع
تسخير الكائنات للخلق

ومن أبرز تجليات الرحمة الإلهية تسخيره جميع الكائنات لفائدة الخلق، وتيسير الانتفاع بها، وتذليلها لهم. فرحمة هذا التسخير ظاهرة في كل ما يحيط بالناس: في تعاقب الليل والنهار، وتوالي الفصول، وفي البحر، وفيما في البحر من السمك والحليّ، وفي البر وفي الصحراء، وفي الجبال، وفي الوديان، وفي الأغوار، وفي السهول وفي الأنهار، وفي البحيرات وفي الأطيار وفي الأسماك، وفي الأزهار وفي النباتات، وفي المحاصيل، وفي الأشجار المثمرة، وفي الأنعام، وفي ثروات الأرض الباطنة، وفي خلق الإنسان، فكل هذا من مظاهر رحمة الله عز وجل. ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣]، قال ابن عاشور: "و﴿وَمِن﴾ تبعيضية، فإن رحمة الله بالناس حقيقة كلية لها تحقق في وجود أنواعها وآحادها العديدة، والمجرور بـ ﴿وَمِن﴾ يتعلق بفعل ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾،

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ج٢٥. ص ٧٥٩.

وكذلك يتعلق به ﴿لَكُمُ﴾، والمقصود إظهار أن هذا رحمة من الله، وأنه بعض من رحمته، التي وسعت كل شيء، ليتذكروا بهما نعمًا أخرى"[1].

وقال عز وجل عن تسخيره للبحر بكل ضخامته وجبروته، وتسهيل سير الفلك فيه، بما يضمن للبشر وسيلة مواصلات فعالة، تنشط بها تجارتهم، وتسهل، بها طرق انتقالهم من مكان إلى آخر، وعدَّ ذلك صورة حيّة من صور رحمته، التي تشملهم في جميع تقلباتهم: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء]، قال الطبري: "إن الله كان بكم رحيمًا، حين أجرى لكم الفلك في البحر، تسهيلًا منه بذلك عليكم التصرّف في طلب فضله في البلاد النائية، التي لولا تسهيله ذلك لكم لصعب عليكم الوصول إليها"[2]، وقال الشوكاني: "وفي هذه الآية تذكير لهم بنعم الله ﷻ عليهم، حتى لا يعبدوا غيره، ولا يشركوا به أحدًا، وجملة إنه كان بكم رحيما تعليل لما تقدم، أي: كان بكم رحيمًا، فهداكم إلى مصالح دنياكم".[3]

وقال ﷻ معددًا نعمه الجليلة ومنبها إلى صور التسخير التي خص بها الإنسان رحمة منه به: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل:٥-٧] قال ابن عاشور: "أي: خلقها لهذه المنافع، لأنه رؤوف رحيم بكم"[4].

إن المتأمل في نعمة تسخير الكائنات يدرك سعة رحمة الله بعباده ورأفته بهم، ولو كلَّف الإنسان نفسه تدبّر هذا الأمر، وتخيّل عكسه لذهل من نتائجه: "إنه ليبدو شيئًا في غاية العُسر إذا نزع الله هذا التسخير

(١) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١١. ص١٧٢.
(٢) الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٧. ص٤٩٧.
(٣) محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. ج١. ص٨٣٤.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١٥. ص١٠٧.

من الكون، وأصبحت لكل الكائنات إرادات حُرَّة، تستطيع بها أن تعاكس إرادة الإنسان لو أرادت، أو على الأقلِّ إذا أصبح الإنسان لا يستطيع استعمال شيء، إلا إذا توصَّل معه إلى توافق واتفاق؛ تُرَى كيف يُصبح الحال لو أن الأرض عَنَّ لها ألا تكون مهادًا، وأن تكون صخورًا أو جبالًا أو قطعًا من الجزر المنتثرة؟! أو إذا خطر للسماء أن تمطر حينًا، وترسل شهبًا حينًا، وتُنْزل الصواعق حينًا؟! كيف يُصبح الحال لو تمرَّدَت الخيل والبغال والحمير، والسفن والقطارات والطائرات، فلم تسمح للإنسان باستعمالها؟!"[1].

المطلب الخامس
رفع البلاء عن الخلق

ومن تجليات رحمة الله رفع البلاء، وتفريج الكربات، وتيسير كل معسر، ورعاية العباد بالتخفيف من آلامهم وإدراكهم برحمته حين تضيق بهم المذاهب وتُسَدُّ في وجوههم الأبواب. قال ﷻ حكاية عن هود عليه السلام كيف رفع عنه البلاء حينما بالغ قومه في تكذيبه، ولجّوا في طغيانهم وجحودهم، وحاربوا دعوته وآذوا أصحابه فنزل بهم العذاب: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف:٧٢]، قال ابن عاشور: "وتنكير رحمة للتعظيم، وكذلك وصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها... أي: فأنجيناه ورحمناه، فكانت الرحمة مصاحبة لهم، إذ كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى انقضاء آجالهم"[2].

وتكررت الآيات التي تتحدث عن رحمة الله بأنبيائه ورعايته لهم، سواء

(١) راغب السرجاني. نظرة الإسلام إلى الكون. http://ar.islamway.net/article/42291.
(٢) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٩. ص٢١٥.

بتيسير سبل النجاة لهم من العذاب الذي أصاب أقوامهم برحمة من الله، كما في قوله ﷻ عن هود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ [هود:٥٨]، وقوله عز وجل عن صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود:٦٦]، وحكايته عن أصحاب الكهف حينما طاردهم جنود الملك ليفتنوهم عن دينهم: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف:١٦] "أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم"(١)، أم برفع البلاء الذي أصابهم، كما هو حال أيوب عليه السلام الذي أدركته رحمة الله، فأذهبت عنه البلاء. قال عز وجل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤]، يقول سيد قطب: "وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء، رحمة من عندنا، فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومِنَّة. ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ تذكرهم بالله وبلائه، ورحمته في البلاء وبعد البلاء"(٢).

وعبر القرآن الكريم عن رفع البلاء بالرحمة في عدد من الآيات القرآنية، منها قوله ﷻ عن الكفار والمشركين، الذين يبتليهم بأنواع البلاء: كالقحط والجوع، ليعودوا إلى ربهم تائبين منيبين، ثم يعقب ذلك البلاء برفعه رحمة بهم: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون:٧٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [الروم].

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج ٥. ص١٤٢.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٤. ص٢٣٩٢.

المطلب السادس
رفع الحرج عن الناس

وتبدو رحمة الله جليّة فيما شرعه لعباده من الأحكام التي تنظم أمور معاشهم، وتحفظ عليهم حقوقهم، والعبادات التي تزكّي نفوسهم، وتطهّر أرواحهم، وتهذّب أخلاقهم، وما أعقبه من رخص تعفيهم من الالتزام بها إذا اضطروا إلى ذلك تحت ضغط الظروف، فقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٧٣]، قال البغوي: "إن الله غفور لمن أكل في حال الاضطرار، رحيم حيث رخص للعباد في ذلك"(١). وقال القرطبي: "فإن الله غفور رحيم، أي: يغفر المعاصي، فأولى ألا يؤاخذ بما رخص فيه، ومن رحمته أنه رخص.(٢)" وقال صاحب المنار "﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إذ حرم على عباده الضار، وجعل الضرورات بقدرها، لينتفي الحرج والعسر عنهم، ووكل تحديدها إلى اجتهادهم، فهو يغفر لهم خطأهم فيه لتعذر ضبطه"(٣). وقال الطاهر بن عاشور: "وقوله: إن الله غفور رحيم تذييل قَصَدَ به الامتنان، أي: أن الله موصوف بهذين الوصفين، فلا جرم أن يغفر للمضطر أكل الميتة، لأنه رحيم بالناس، فالمغفرة هنا بمعنى التجاوز... ومعنى الآية: أن رفع الإثم عن المضطر حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة"(٤).

وقد تكررت هذه الرخصة في عدد من الآيات، واقترنت كلها برحمة الله وغفرانه(٥)، رفقًا منه ﷻ وإشفاقًا على عباده من أن يهلكوا لضعفهم أمام الشدائد: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء:٢٨].

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج١. ص١٨٤.
(٢) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. ج٢. ص٢٢٠.
(٣) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٢. ص٨١.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٢. ص١٢٢.
(٥) البقرة، ١٨٢. النساء، ٢٩. المائدة، ٣. الأنعام، ١٤٥. التوبة، ٩١، ٩٢. النحل، ١١٥. الأحزاب، ٥٠.

قال السعدي منوهًا برحمة الله في أحكامه وتشريعاته: "إن الشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء الحقوق، سواء كانت لله أو للخلق، فإن الله لم يكلف نفسًا إلا وسعها، وإذا تدبرت ما شرعه الله عز وجل في المعاملات والحقوق الزوجية وحقوق الوالدين والأقربين والجيران وسائر ما شرع وجدت ذلك كله مبنيًّا على الرحمة"(١).

المطلب السابع
قبول التوبة

من تجليات رحمة الله حلمه على عباده وإمهاله لهم، وعدم تعجيل العقوبة لهم إن هم أخطأوا أو أذنبوا أو اقترفوا المعاصي، وجرفتهم الأهواء إلى تيار الفواحش والمحرمات، منتظرًا منهم يقظة الضمير وحياة الروح، ليعودوا إليه، ويتوبوا عما فعلوه، فيقبل توبتهم، ويتجاوز عن إساءتهم، ويفتح لهم من رحمته بابًا واسعًا للأمل، ليبدؤوا من جديد بداية سعيدة. ولعل ذلك ما يفسر اقتران الآيات التي يمن فيها الله بالتوبة على عباده بصفتي الغفور أو التواب متبوعة بصفة الرحيم، قال ﷻ عن أبينا آدم عليه السلام بعد أن أدرك ذنبه وعصيانه لأمر ربه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة]. قال البغوي: "﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ فتجاوز عنه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ يقبل توبة عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه"(٢)، وقال محمد رشيد رضا: "أي: قَبِلَ توبته، وعاد عليه بفضله ورحمته، وبيَّنَ سبب ذلك بأنه ﷻ هو التواب؛ أي: الذي يقبل التوبة كثيرا، فمهما يذنب العبد ويندم ويَتُبْ يَتُبِ الربُّ عليه،

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة. المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي. رقم ٥. ثقافة إسلامية. مركز صالح بن صالح الثقافي. العنيزة. السعودية. ١٤١١هـ-١٩٩٠م. مج ١. ص ٤٠٦.

(٢) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج١. ص٨٦.

وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسئ أحدهم بما هو سبب لغضبه ﷻ، ويرجع إليه، فإنه يحفُّه برحمته"[1].

وقال ﷻ مخاطبًا بني إسرائيل الذين عبدوا العجل بعد أن أسبغ عليهم الله نعمه الكثيرة: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤]، قال البغوي: "فتاب عليكم فتجاوز عنكم إنه هو التواب القابل التوبة الرحيم بخلقه"[2]، وقال محمد رشيد رضا: "فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم، أي: أنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم، وإن تعددت قبلها جرائمهم، الرحيم بهم، ولولا رحمته لعجل بإهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى"[3].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة]، قال محمد رشيد رضا: "وأن الله هو التواب الرحيم، أي: أنه هو الذي يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه، ويتوب عنه منيبًا إلى ربه مهما يتكرر ذلك. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالتائبين الذي يثيبهم. فصيغة المبالغة ﴿التَّوَّابُ﴾ تتحقق بكثرة التائبين، وبتكرار التوبة من المذنب"[4]. وقال ابن عاشور: "وقوله وأن الله هو التواب الرحيم. عطف على أن الله هو يقبل التوبة، تنبيهًا على أنه كما يجب العلم بأن الله يفعل ذلك يجب العلم بأن من صفاته العلى أنه التواب الرحيم، أي: الموصوف بالإكثار من قبول توبة التائبين، الرحيم لعباده. ولا شك أن قبول التوبة من الرحمة، فتعقيب ﴿التَّوَّابُ﴾ بـ ﴿الرَّحِيمُ﴾ في غاية المناسبة"[5].

(١) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١. ص٢٣٢.
(٢) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج١. ص٩٦.
(٣) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١. ص٢٦٧.
(٤) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١١. ص٢٧.
(٥) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١٢. ص٢٥.

الخاتمة

ومما سبق نخلص إلى أن موضوع الرحمة في الخطاب القرآني من الموضوعات المحورية والمركزية، التي سجلت حضورًا لافتًا في مجمل النسيج القرآني، وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة توضيح الإطار المفاهيمي لهذا المصطلح القرآني في جانبيه: اللغوي والدلالي، وسعينا إلى بيان الخصائص والمميزات، التي تنفرد بها الرحمة الإلهية، ووقفنا عند مقام الرحمة ومكانتها في القرآن الكريم، وحلّلنا الأبعاد والدلالات الغزيرة الثرية المرتبطة بهذا المصطلح، وتطرقنا لأهم التجليات التي تظهر فيها الرحمة الإلهية، وعرضنا لمختلف السبل والأسباب التي تُستنزَل بها هذه، ويُستَزاد بها منها. وقد توصلت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نذكر أهمها فيما يلي:

١. أن الرحمة مصطلح قرآني أصيل، يلفت الأنظار بحضوره القويّ والكثيف في ثنايا الآيات القرآنية بصيغه المختلفة ومشتقاته الكثيرة، ولا يكاد يغيب عنها، وهو وثيق الصلة بكثير من الصفات الإلهية التي اقترنت به وأنبأت عن سعته وشموله لكل دقائق الوجود وشؤون الحياة.

٢. أن للرحمة الإلهية خصائص ومميزات تليق بجلال الله، وكمال صفاته، وكرمه الواسع، وهي تختلف عن الرحمة البشرية، التي لا تعدو أن تكون جزءًا ضئيلًا من بحر هذه الرحمة. ومن خصائصها

أنها صفة ثابتة من صفاته، وصف بها نفسه العلية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وأكد أنه مصدر الرحمة كلها، ومن خصائصها أيضًا أنها واسعة وشاملة، يدبر بها ﷻ شؤون العالمين، ويسبغها بلطفه على جميع خلقه، ومن هذه الخصائص كذلك أنها مبذولة للخلق جميعًا لا يمنعهم عنها إلا كفرهم أو غفلتهم، وأنها بيد الله وحده، فهو ﷻ مصدرها الأول والأخير، وأنها رحمة عامة في الدنيا لجميع الخلق وخاصة في الآخرة بالمؤمنين.

٣. أن استقراء آيات الذكر الحكيم أثبت لنا أن للرحمة مقامًا كبيرًا في الخطاب القرآني، ولا نبالغ إذا قلنا إنها تحتل الصدارة مقارنة بالصفات الأخرى، وبإمكاننا الوقوف على ذلك من خلال عدة مظاهر، منها تكرار البسملة التي تتضمن اسم الرحمن والرحيم في كل سور القرآن، ما عدا سورة التوبة، ومنها العدد الكبير من الآيات الواردة في الرحمة والتي قُدِّرَت بـ ٣٣٢ مرة، ومنها طلب الرحمة في دعوات الملائكة والأنبياء والمؤمنين باعتبارها مطلبهم الأسمى في الدنيا والآخرة.

٤. أن للرحمة في الخطاب القرآني إيحاءات وأبعادًا كثيرة تستوعب حشدًا من المعاني الغنية والدلالات الثرية، التي تجعل الرحمة على رأس الصفات الربانية الأكثر شيوعًا فيه. فهي تضم معاني النبوة والقرآن والجنة والرزق والنصر والألفة والمغفرة وإجابة الدعاء والعصمة والسعة والتخفيف ورفع الحرج وغيرها من الدلالات التي تصعب على الحصر.

٥. أن الرحمة في الخطاب القرآني لا تقتصر على التعابير المباشرة المتولدة من الجذر (رحم) فقط، بل تتعداها إلى كثير من التعابير

غير المباشرة، والتي تتلبّس بالرحمة في جانب من جوانبها، أو تكون نتيجة من نتائجها أو سببًا من أسبابها كالهداية والرفق واللين والتسخير والإنعام والتكريم والتوازن في الكون وغيرها.

٦. أن للرحمة في الخطاب القرآني تجليات كثيرة، لا نكاد نحصيها لتغلغلها في كل ذرات الكون من حولنا، وتمظهرها في أدق تفاصيل حياتنا. ومن أبرز هذه التجليات: إرسال الرسل والأنبياء، إنزال الكتب السماوية، إنزال المطر، وتسخير الكائنات للخلق، رفع البلاء عن المكروبين، رفع الحرج عن الناس في أحكام الشريعة، قبول توبة المخطئين والعاصين، وغيرها من التجليات التي لا نستطيع الإحاطة بها من كل أطرافها.

٧. أن الفئات الأكثر حرمانًا من رحمة الله هم الطغاة والظالمون والمجرمون والكافرون، إذ ينص الخطاب القرآني صراحة على أنهم مطرودون من رحمة الله، ومُبْعَدون عنها. وإذا كانوا قد تقلبوا في رحمة الله في الدنيا واستمتعوا بنعم الله عليهم مع بقائهم على فسادهم وشرورهم، فإنها في الآخرة مقطوعة عنهم حتمًا.

٨. أن نظام الحياة كلها قائم على الرحمة الإلهية، وأن وجود المخلوقات مرتبط أشد الارتباط بهذه الرحمة التي لا غنى لهم عنها، سواء شعروا بها أم لم يشعروا.

٩. أن أكثر الفئات حصولًا على رحمة الله هم المؤمنون المحسنون الذين علموا سعة رحمة ربهم، فسارعوا إليها، وأقبلوا عليها، وطرقوا أبوابها، وطلبوا أسبابها، فاستظلوا بأفيائها في الدنيا، وهي من نصيبهم الوافر في الآخرة.

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. إسماعيل بن حماد الجوهري. تاج اللغة وصحاح العربية. ط٢. ١٩٩٧م. دار العلم للملايين. بيروت.
٣. أبو الحسين أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الفكر العربي. بيروت. ١٩٧٨م.
٤. أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. الكليات. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط٢. ١٩٩٣م.
٥. أبو زيد المقرئ الإدريسي. عموم الرحمة وعالمية الإسلام. مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات. الدار البيضاء. المغرب. ط١. مارس ٢٠١٤م.
٦. أحمد الشرباصي. موسوعة أخلاق القرآن. دار الرائد العربي. بيروت. د.ت.
٧. أبو حامد الغزالي. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. تحقيق: محمد عثمان الخشت. مكتبة القرآن. القاهرة.
٨. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. فتح الباري شرح صحيح البخاري. دار المعرفة. بيروت.
٩. أحمد بن محمد النحاس. معاني القرآن. تحقيق: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. ط١. ١٤٠٩هـ.
١٠. إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد السلامة. دار طيبة. الرياض. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١١. برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي. نظم الدرر في تناسب

الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة. ١٩٨٤م.
١٢. جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. دار الكتاب العربي. بيروت. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
١٣. جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تفسير الجلالين. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
١٤. جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. دار صادر. بيروت.
١٥. الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرون. دار طيبة. الرياض. ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
١٦. حمد بن محمد البستي الخطابي. شأن الدعاء. تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. دار الثقافة العربية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط٣. ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.
١٧. الراغب الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: نديم مرعشلي. دار الكاتب العربي. بيروت. ١٩٧٢م.
١٨. راغب السرجاني، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، رابطة العالم الإسلامي. مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية
١٩. زين الدين عبدالرؤوف المناوي. التيسير بشرح الجامع الصغير. مكتبة الإمام الشافعي. الرياض. ط٣. ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.
٢٠. سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط٧. ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
٢١. عبدالحميد بن باديس. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. جمع وترتيب وإعداد وتعليق: توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان. ط٣. ١٣٩٩هـ -١٩٧٩ م. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق.

٢٢. عبدالرحمن حبنكة الميداني. الأخلاق الإسلامية وأسسها. دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ط٨. ٢٠١٠م.
٢٣. عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط١. ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢ م.
٢٤. عبدالرحمن بن ناصر السعدي. الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة. المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي. رقم ٥. ثقافة إسلامية. مركز صالح بن صالح الثقافي. العنيزة. السعودية. ١٤١١هـ -١٩٩٠م.
٢٥. عبدالرحمن بن ناصر السعدي. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار. مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة. السعودية. ١٤١١هـ -١٩٩٠م.
٢٦. عبدالرحمن بن علي بن الجوزي. زاد المسير في علم التفسير. المكتب الإسلامي. بيروت. ط٣. ١٤٠٤هـ.
٢٧. عبدالرحمن بن محمد الثعالبي. الجواهر الحسان في تفسير القرآن. مؤسسة الأعلى. بيروت.
٢٨. عمار ساسي. المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم. عالم الكتب الحديث. الأردن. ط ١. ٢٠٠٦م.
٢٩. عمرو بن بحر الجاحظ. تهذيب الأخلاق. قرأه وعلق عليه: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد. دار الصحابة للتراث بطنطا. مصر. ١٤١٠هـ -١٩٨٩م.
٣٠. علي بن خلف بن بطال. شرح صحيح البخاري. تحقيق: أبو تميم ياسر ابن إبراهيم. مكتبة الرشد. الرياض. السعودية. ط٢. ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م.
٣١. فاضل السامرائي. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. دار عمار. عمان. الأردن. ط ٣. ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م.

٣٢. فخر الدين محمد بن عمر الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية. بيروت. ٢٠٠٤م -١٤٢٥هـ.
٣٣. محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر. دمشق. ١٤١٥هـ -١٩٩٥م
٣٤. محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة. بيروت. ط٢. ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م.
٣٥. محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. اختصره: ابن الموصلي. تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث. القاهرة. ط١. ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.
٣٦. محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. التبيان في أقسام القرآن. دار المعرفة للطباعة والنشر. القاهرة. ٢٠٠٤م.
٣٧. محمد بن أحمد الأزهري. تهذيب اللغة. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط ١. ٢٠٠١م.
٣٨. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته. تحقيق: عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي. المكتبة العصرية. بيروت. ط١. ٢٠١٢م.
٣٩. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. ط٢. ١٣٨٤هـ -١٩٦٤م.
٤٠. محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري. دار ابن كثير. دمشق. بيروت. ط١. ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
٤١. محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. دار المعرفة. بيروت. ط٣. ١٩٧٨م.

٤٢. محمد جمال الدين القاسمي. محاسن التأويل. دار إحياء الكتب العربية. بيروت. ط١. ١٣٧٦هـ -١٩٥٧م.
٤٣. محمد بن الحسن بن دريد. جمهرة اللغة. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. ط١. ١٩٨٧م.
٤٤. محمد رشيد رضا. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٠م.
٤٥. محمد سيد طنطاوي. التفسير الوسيط للقرآن الكريم. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. الفجالة. القاهرة.
٤٦. محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس. ١٩٨٤م.
٤٧. محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. دار المعرفة. بيروت. ١٤٢٣هـ -٢٠٠٤م.
٤٨. محمد علي الصابوني. صفوة التفاسير. دار الصابوني. القاهرة. ط١. ١٩٩٧م.
٤٩. محمد متولي الشعراوي. أسماء الله الحسنى. المكتبة التوقيفية للتراث. القاهرة. ٢٠١٠م.
٥٠. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق: محمد النجار. المكتبة العلمية. بيروت.
٥١. محمود شكري الآلوسي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار الفكر. بيروت.